

خواطر توقع الأسير في المصيدة

عبد الرؤوف أبو شقرة

(١) المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن والاه بإحسان إلى يوم الدّين ..

سأبدأ بإذن الله سلسلة مهمّة جدًّا في قضيّة السّجن والتّحقيقات وكيفيّة التّعامل مع المحقّقين والعصافير، ولا أنوي أن أعيد اجترار نفس الكتابات السّابقة في هذا الباب، ولكن أحاول في هذه المنشورات معالجة سؤال متكرّر:

لماذا عدد كبير ضخم من الشّباب يقرأ عن أساليب المحقّقين و(العصافير) ثمّ يُسجن فيقع في نفس الأساليب الّتي قرأ عنها ؟

والجواب على ذلك أنّ أكثر الكتابات لا تتطرّق للبُعد النّفسيّ للأسير، ولا طريقة تفكيره، فهو ينظر لهذه الأساليب من الخارج بمنطق المرتاح، فلا يُحسن تصوّرها، وتخيّل آليّتها.

وللعلم فهي نفس الوسائل، يستخدمونها منذ عشرين أو ثلاثين سنة على أقلّ تقدير، ولا زال أكثر الشّباب ينخدعون بها رغم قراءة العديد عنها، لذا سأجتهد مستعينًا بالله أن نقف على نفسيّة الأسير في كلّ مرحلة، وكيف يُفكّر وما هي الخواطر الّتي تدعوه للوقوع بفخّ عرفه مُسبقًا.

فهي سلسلة تطلعك لا على الأساليب فحسب، بل على الخواطر الّتي تجول في ذهن الأسير حينها، ثمّ تقوده للوقوع في شباكهم، فالحذر واجب من الأساليب ومن الخواطر الوسواسيّة الّتي تجول في ذهنه ..

تذكّر أنّ معرفة هذه الأمور بات واجبًا في ظلّ الصّراع المُحتدم والمرحلة القادمة الّتي يظهر أنّها أنكى وأشدّ، فلا تتهاون في مستقبل لا تدري أين محلّك فيه، نسأل الله لنا ولكم الحفظ والسّلام والفوز في الآخرة، وكتب الله لنا ولكم التّسديد والتّوفيق..

(٢)

لن أطيل بالمقدّمات كثيرًا، ولكن وقفة سريعة مع طبيعة النّفس الإنسانيّة في الرّخاء والهاوية ..

اعلم –حفظك الله– أنّ من طبيعة النّفس البشريّة أنّ يختلف نمط تفكيرها وتصوّرها للأشياء، بين تفكير في مرحلة الهدوء والأمن، وتفكير عند مباشرة الفتنة..

ففي الرّخاء مثلاً، وعند تبادل أطراف الحديث، إلى جانب فنجان من القهوة، لا أحتاج كثيرًا لأقنعك أنّك إن غرقت بالماء فلا تضع جهدك في الوصول للقشّة، لأنّها لن تنقذك، بل إن جئت أقنعك بذلك من واقع خبرة من تصرّفات الغرقى ستستخفّ بالأطروحة والمعلومة، وتجدها بديهيّة لا تستحقّ حتّى التّذكير، ولن تُكلّف ذهنك عناء التّصوّر والخيال ..

ولكن عند الغرق والمعاناة وفقد الأمل، وحصول الفزع ورؤية الموت، فإنّ أوّل ما تسعى إليه وأنت في تلك اللّحظات هو تبديد طاقتك للوصول للقشّة، وحينها لو رميت بصراخي إليك، وتلقّفته أذناك، فسأحتاج كثيرًا من الوقت لإقناعك بسذاجة فعلك، وربّما ترمُقني مرّة أخرى بنظر ازدراء وعدم اقتناع ..

إذن هو فارق شاسع بين منطق التّفكير عند الأمن والطّمأنينة، وعند الفزع والغرق، واليوم عندما نتحدّث عن هذا الموضوع قد لا تجد مبرّرًا للإصغاء، لأنّ المسألة بسيطة بظنّك، «لن أتحدّث بشيء للمحقّق»، «سأكون حذرًا من (العصفور) في الزّنزانة ولن أقول له شيئًا»، هكذا تنتهي المسألة وبكلّ بساطة !

أمّا عند الأسر تأكّد أنّه سيختلف منطق تفكيرك، وستجد دافعًا في داخلك يقول لك ثِق بوعوده وكلامه، فلا أمل ولا نجاة لك إلّا بواسطة هذه القشّة، حتّى لو حذّرك محاميك من ذلك، فستُعرض عن نصيحته لأنّك الغريق وهو يحادثك من اليابسة، فاسمع جيّدًا الآن وأصغِ فليس الموضوع بتلك البساطة، ليس بسذاجة «لن أقول شيئًا» ثمّ ينتهي الأمر، بل ستقول كلّ شيء إن لم تكن على بصيرة من الآن وتنال التّوفيق من الله..

(٣) منهجيّة التّهويل ونفسيّة الإغراق

سأبدأ مباشرة بمرحلة الاعتقال والأسر والتّحقيق ولعلّنا نعود لاحقًا لمرحلة ما قبل الاعتقال، فأوّل سياسة تُتّبع مع الأسير عند الاعتقال هي سياسة التّضخيم والتّهويل، لإدخال نفسيّته في مرحلة اليأس والإحباط، بحيث يشعر أنّه وقع وخسر ولن يخرج من السّجن أبدًا، فيبدأ بالتّفكير بمنطق الغريق لا منطق النّبيه، ولتبحث عن القشّة لا الجذعة، ولتتّخذ اختيار الضّرورة لا اختيار التّعقّل، ولإيصالك لهذه النّفسيّة ينطلقون لمنهجيّة التّضخيم والتّهويل، ولذلك عدّة أساليب:

التّهويل بالقوّة العسكريّة

أوّلًا: طريقة الاعتقال باستخدام قوّة كبيرة من الجيش أو الشّرطة، فتشعر أنّك كنت محلّ بحث الدّولة وتفتيشها بكلّ صغيرة وكبيرة من أمور حياتك، وتقع على عينيك هالة كبيرة، ويُلقى على سمعك أثناء الاعتقال ألفاظ عامّة فضفاضة: «وأخيرًا وقعت»، «انتهى الأمر»، «ماذا كنت تظنّ؟ أنّنا سنترك تفعل ما تشاء؟»، أو يأتي أحدهم فيقول: «هذا هو فلان؟» وهو لا يعرفك ولم يسمع عنك شيئًا مجرّد تهويل، لينقذف في ذهنك أنّك كنت تشغله بشكل شخصيًّا كثيرًا، ولتبدأ ظنونك وخواطرك بتجميع كلّ ما فعلته منذ ولدتك أمّك، وتضعه في مقدّمة عقلك، ثمّ تتفلّت هذه الخواطر على مكتب التّحقيق، بقصد أو بغير قصد، فيأتون بك لشكّهم فيك بشيء ما، فإذا بك تستخرج أمورًا لم تكن في الحسبان..

لذا اعلم أنّ هذا منهج يتّبعونه مع كلّ شخص، وهي ألفاظ جوفاء لا تعبّر عن معرفة أو اطّلاع، ولو عرفوا فالاعتراف يدينك، والصّمت يُعطي فرصة لكي يعمل محاميك ويترافع عنك، فالاعتراف قشّة لا تُنجيك ولو كنت غريقًا فعلاً، حافظ على طاقتك بهدوئك وصمتك، فإمّا أن يُفرج عنك، أو يعمل محاميك بمنافذ عديدة..

(٤) التّهويل في التّهم

ثانيًا: التّهويل في التّهم، فدائمًا عندهم تُهم معلّبة يلقونها على كلّ أسير جديد بحسب طبعه وتوجّهه، غالبًا يشكّون به أنّ له توجّهات أو قد يكون له تصرّفات معيّنة، فيتّهمونه بتهم عامّة من غير تفصيل، ولكنّها ضخمة، فلو كان فعلًا يخفي أمرًا ما سيخطر في باله أنّهم عرفوا ما يخفيه، وأنّ هذه التّهمة يُقصد بها ذاك الّذي يخفيه، فتجدهم يسارعون إلى اتّهامه بالانضمام لمنظّمة إرهابيّة (كالدّولة أو القاعدة أو حماس) ويتّهمونه في الوقت نفسه بتشكيل خلايا، ويتّهمونه بالتّخطيط لتنفيذ عمليّة، ويتّهمونه بالالتقاء بعدوّ خارجيّ، ويُضاف بينها تُهمة تخصّه تحديدًا، يظنّونه فعلها وغير واثقين منها، ولكن عرضهم يكون على صيغة القطع.

كلّ هذه التّهم في النّهاية تسقط، وتبقى التّهمة الخاصّة فقط، وخلال فترة التّحقيق يراقبون التّصرّفات وردّات الفعل، وعندما يسمع الأسير زخم هذه التّهم وضخامتها يجول في فكره ما فعل وما لم يفعل، لو فعل أمرًا فسيظنّ أنّهم كشفوه، وفي الحقيقة لم يكشفوه ولكن أوهموه بذلك، بل ويتخيّل أمورًا لم تخطر في بال المحقّق أصلًا، إنّما بسبب النّفسيّة الّتي دخل بها، هو يقدّمها على طبق من ذهب، في جوّ من الانهيار، ومحاولة الخروج بأقلّ الخسائر، وأقلّ محكوميّة ممكنة.

تذكّر أنّ هذه التّهم معلّبة تلقى لكلّ شخص وليست خاصّة بك، وحاول دائمًا التّفكير بإيجابيّة، عش مع الله، مع الأنس بالله والذّكر والتّهليل والتّكبير، وحافظ على صمتك، وهدوئك وحسن تركيزك، ولا تدع مجالًا للخواطر والوساوس أن تستحوذ عليك، اجعل نفسك بين يدي الله، ولا تأبه وبقولهم وبتهمهم، واستعن بالله ولا تعجز.

تذكّر أنّك ما دُمت في الاعتقال فهذا يعني عدم ثبوت أيّ شيء عليك، فلا تفكّر في تقليل الخسائر، هذه المنهجيّة يُفكّر بها المحامي عنك بعد نزول لائحة الاتّهام ضدّك، وبدء محاكمات وفق لائحة اتّهام لا مُحاكمات التّمديد ..

(٥) التّهويل عن طريق العصفور

ثالثًا: التّهويل عن طريق (العصفور) وهو عميل تابع لهم يتظاهر أنّه أسير معك، ويعيش فعلاً في الزّنزانة، وعليه ملامح الإرهاق والتّعب، لتثق به ويوقع بك (سنتحدّث لاحقًا إن شاء الله عن وسائله وحركاته لجعلك تثق به).

هذا العصفور له مهامّ عدّة، وليست مهمّته متوقّفة على اختلاس المعلومات منك، فأوّل أدواره هي أن يعمل على تأكيد تحبيطك، ومعرفة أين تقف في هذه المرحلة، سيخبرك عن قصّة أسره الشّبيهة لقضيّتك، وقد يُشعرك أنّ قصّته أبسط من قصّتك ومع ذلك لم يكن له أيّ سبيل للنّفاذ، سيقول هذا (الصّرصور) أنّه إن اعترف عليك شخص فليس لك شيء، ولا سبيل للنّجاة، ويقول أنّ قضيّتك ستُسجن عليها عشر سنين، وربّما إن اعترفت يُخفّف عنك قليلاً، ثمّ يوهمون أنّ أصحابك اعترفوا عليك وانتهى أمرك.

ثمّ يسرد قصص لياليه الطّوال في الأسر، ويُلقي في أذنك عبارات تشجيع هي أقرب للتّحبيط، «اللّي بيقع من السّماء بتلقفو الأرض»، «باب السّجن ما بسكّر على حدا»، ومن العبارات الّتي توحي أنّك ستقبع في الأسر عمرًا طويلاً، وربّما يحدّثك عن صفقات تبادل الأسرى، ولعلّك تكون منها، وقصّتك كلّها لا تستحقّ السّجن شهورًا أو سنة!

هو إحباط في إحباط، حتّى تستمكن هذه المرحلة من نفسيّتك، يبدؤون بالمرحلة الثّانية، وقد تستغرب أنّ التّحقيق قد لا يبدأ معك أيّامًا لأنّك لم تصل بعدُ -في نظرهم- لمرحلة الإحباط الكافية، فهو مكر اللّيل والنّهار.

(٦) التّهويل عند المُحقّقين

رابعًا: إثارة الإحباط عن طريق أسلوب التّحقيق ونظرات المحقّق وعباراته وتلميحاته، فيوضع الأسير مقيّدًا على الكرسيّ، مقيّد اليدين من الخلف، ومقيّد القدمين، ينتظر قدوم المحقّق، وهو في هذه الأثناء يفكّر ويجمع ويطرح، يلملم كلّ جرائم الطّفولة، وطيش الشّباب، يلملم كلّ شيء حتّى يُخيّل إليه أنّه سيسأل عن شتمه اليهود مرّة وهو في الحضانة ! يضع كلّ صغيرة وكبيرة أمامه ويتخيّل أنه سيُعرض عليه كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها !

وبعض الشّباب استدعي للتّحقيق في حملة تحقيقات عامّة مع عشرات الشّباب غيره، لا تستغرق مثل هذه التّحقيقات ربع أو نصف ساعة عادة، ظنّ المسكين أنّ التّحقيق جاء له خصّيصًا، وإذا به وعند جلوسه أمام المُحقّق ينهار ويبدأ بتمتمة حول أمور لم يتخيّل المحقّق ولو للحظة أن يتحدّث عنها، «لم أقصد شيئًا»، «أخطأت ولن أعود إلى ذلك من جديد»، ولو انتظر دقائق لانتهى التّحقيق معه وعاد للبيت، ولكنّ المسكين انهار وأخرج ما بجعبته ولم يطلبها منه أحد، بسبّب النّفسيّة الّتي حملها عند دخوله على المُحقّق.

هذا بسبب الخواطر والوسواس الّذي يتضخّم في ذهن الموقوف، والأوهام الشّيطانيّة الّتي تسرح في عقله، والمحقّق يُعينه على تلك الوساوس، يقول له: «ماذا عن علاقاتك المشبوهة؟»، «أين كنت قبل أيّام ؟» ، «وصلتنا عنك معلومات خطيرة لن نخبرك عنها بل أنت من ستخبرنا بها !»

المسكين لا يعلم أنّها أسئلة (روتينيّة) يُسأل عنها كلّ شخص، ولكن هو لأنّ له فعلًا علاقة مشبوهة يظنّ السّؤال مقصودًا، فإذا به يتلعثم ويتعثّر، ويصفرّ ويحمرّ ويخضرّ، ويفرك جلدة رأسه، وينتف لحيته، بحركات لا إراديّة.

تُرصد هذه الحركات فتزداد الأسئلة العامّة والفضفاضة في هذا الباب، ومع ذلك يعمل المُحقّق على إرسال نظرات ضيّقة حادّة، مع هزهزة خفيفة للرأس، ومعالم صارمة، تحكي له أنّنا أمسكناك وعرفنا عنك كلّ شيء، فيتوسّع الخيال قليلًا ويبدأ بتخيّل الأقمار الصّناعيّة كانت

تُتابعـه في كلّ لحظـة وحـين، بـل اخترقـت بوسـائلها الحديثـة جـدران بيتـه، وصـوّرت مغلّفاتـه المغلقـة!

وفي الأثنـاء يدخـل كلّ فـترة (مـرّاق الطّريـق) يفتـح أحدهـم البـاب بشـكل مفاجـئ، يريـد مخاطبـة المُحقّـق في أمـر مـا، فجـأة يلتفـت إليـك، ينظـر ويدقّـق ويُبحلـق، ثـمّ يصـرخ: «أنـت فـلان؟!! تقـول لـه: نعـم، فيقـول: وأخـيرًا!!!!».

وهـو لا يعرفـك، ولم يسـمع عنـك شـيئًا، مجـرّد حركـة بـاردة تبـيّن أهمّيـة القبـض عليـك، وهـو ذات الشّـخص يمـرّ علـى عشـرة غـيرك بنفـس الطّريقـة ونفـس الأسـلوب، ونفـس الخواطـر الّـتي يُلقيهـا في ذهنـك تُلقـى في أذهـان غـيرك، هـذا ببسـاطة ممثّـل وظيفتـه يعيـد المشـهد في كلّ يـوم عشـرات المـرّات. تأكّـد أنّـك تتعامـل مـع ممثّلـين بـكلّ مـا تعنيـه الكلمـة مـن معنـى، وظيفتهـم أن يُمثّلـوا عليـك ويلعبـوا بخيـوط دماغـك، لتصـل للنّفسـيّة الّـتي تعينهـم علـى مـا يريـدون، وتأكّـد أنّـك تتعامـل مـع موظّفـين، ينتظـرون انتهـاء العمـل للعـودة للبيـت، إلى حضـن عشـيقته، يُخطّـط أيـن سـيقضى نهايـة الأسـبوع، لا يعنيـه أنـت ولا غـيرك، يأتـي ينجـز عملـه ويعـود للبيـت، في كلّ يـوم يمـرّ عليـه أشـخاص كُثـر، وهكـذا يسـتمرّ الأمـر، كلّ يـوم وجـوه جديـدة.

ودفـع الأمـر ببسـاطة سـهل، وهـو أن تعيـد الحديـث مـع نفسـك، أنّـك لـن تعـترف بشـيء ولـو كانـت كذبتـك مثـل وضـح النّهـار، فلسـتَ هنـا في مقـام تقييـم مـدى صدقـك وعدالتـك، وليسـت مهمّتـك أن يثقـوا بـك، لأنّ مهمتهـم أن لا يثقـوا بـك.

فـلا تُشـغل نفسـك بـأنّ المُحقّـق سيكشـف كذبتـك أو لا يكشـف، أو أنّ كلامـك متناقـض ضعيـف أم قـويّ، يسـتطيع المُحقّـق أن يعتقـد عنـك مـا شـاء، ويسـتطيع قلـع فـروة رأسـه إن لم يُعجبـه كلامـك، المهـمّ أن لا تُعينـه علـى نفسـك.

الاعـتراف مهلكـة، والصّمـت يُبقـي لـك أمـلاً، ولا يضـرّك الصّمـت في المحكمـة، فقـرار المحكمـة يسـتغرق سـنة أو أكثـر، وخـلال هـذه الفـترة الطّويلـة سـتنتهي مرحلـة التّحقيـق في الأسـابيع الأولى،

وبعدها تُفكّر بالخيار الأنسب مع محاميك بهدوء.

فاربط على قلبك ولسانك مهما صرخوا وهدّدوا وتوعّدوا، فبعد قليل سيزول كلّ شيء، وتُفكّر حينها بهدوء، وفوّض أمرك لله.

(٧) التّهويل عن طريق الكذب

خامسًا: الإحباط عن طريق الإيهام بوجود الاعترافات الكاذبة، والوثائق المزيّفة، والكذب على المحكمة، فتذكّر أنّك تتعامل مع قوم لا يتورّعون عن الكذب الصّريح، الّذي يلحقه ابتسامة السّاخر، ونظرة المزدري، هذا واقعهم.

قد يخبرون الأسير أنّ صديقه مسجون لديهم واعترف عليه، وهو غير معتقل أصلاً، بل ربّما يعتقلونه بناء على ردّة فعله الّتي توحي أنّه دخل بأزمة لسماع ذلك، وقد يدعونه يراه من ثُقب الباب، أو يُسمعونه صوته بطريقة ما، فتعود الخواطر والوساوس تجول في رأسه وتتلاطم في كلّ نواحيه.

وقد يمدّونه بوثيقة موقّعة من المحكمة أنّه اعترف عليك، ويدعونه يقرأ بعض ما فيها، بل قد يواجههم المحقّق بمعلومة هامشيّة ليتأكّد أنّ صديقه تحدّث بنقيض كلامه، ثمّ يصوّر له بعد التّفريق بينهم أنّه تحدّث في أمور أخرى فينشأ في داخله سخط وهواجس الخيانة والاعتراف.

ومن الأمور الّتي تَحْدث، وتحدث كثيرًا، أنّه يجمع معلومات تافهة من أصدقائك ثمّ يعرضها عليك بأسلوب ماكر خبيث، فأصدقاؤك يتساهلون في الحديث عن المعلومات غير المهمّة كجلسته ليلة الجمعة في بيت فلان، وقيامه بعد التّحدّي بأكل طبق البيتسا كاملاً، والتّندّر على فلان.

ولكن المُحقّق يستغلّ هذه المعلومات لتفعيل خيالك وخواطرك إلى حيث يشاء، وليُعمل الوساوس في نفسك، سيقول لك مثلاً: «متى التقيت بأصحابك آخر مرّة ؟»، ثمّ يسألك مباشرة: «هل تُحبّ البيتسا كثيرًا ؟»، ويسكت أو يغيّر الموضوع، عندها ستضطّرب وتحتار وسيذهب النّفس

والخيـال كلّ مذهـب، وسـتحدّثك نفسـك أنّـه إن كان يعلـم هـذه التّفاصيـل الصّغيرة فكيـف بالأمـور الكبـيرة، وسـتتخيّل أنّ أصدقـاءك كلّهـم خـون وعمـلاء واعترفـوا عليـك وتُصـاب بالإحبـاط والسّـخط. والصّحيـح أن تطفـئ أعصابـك، وتتعامـل مـع الأمـور بـبرودة تامّـة، وتتقوقـع فـلا تـأذن في هـذه المرحلـة لأيّ وسوسـة وكذبـات تجـول في خاطـرك، كـن ثابتًـا، هـم لا يتورّعـون عـن الكـذب الصّريـح عليـك، فـلا تتـورّع إن وجـدت حاجـة أن تكـذب الكـذب الصّريـح عليهـم، أنـت لم تفعـل ولم تقـل شـيئًا، وإن حدّثتـك نفسـك بأنّهـا فعلـت، قـل لهـا يـا كاذبـة لم أفعـل.

اكـذب علـى نفسـك وصـدّق الكذبـة، وعشـها كأنّهـا واقـع، لـو لقيـت والـدك وقـال لـك: «اعـترف» كذّبـه، ولـو لقيـت أخـوك وصديقـك وحبيبـك فكذّبهـم، أنـت الصّـادق علـى الأقـلّ في هـذه المرحلـة فقـط، لا يعنيـك إن اعترفـوا عليـك أم لم يعترفـوا، لا يهـمّ إن وُجـد معهـم الدّليـل الصّريـح أم لم يوجـد، لا يهـمّ إن اقتنعـوا بكلامـك أم لم يقتنعـوا، لا يهـمّ إن عرضـوا عليـك صـورك متلبّسًـا أم لم يعرضـوا، المهـم أنّـك مُقتنـع أنّـك لم تفعـل ولم تقـل شـيئًا، هكـذا اركـب دماغـك ولا تلتفـت إليهـم.

التّحـدّي عنـدك بجانـب واحـد، هـو الصّمـت ثـمّ الصّمـت ولـو واجهـوك بالصّـور والفيديـو، فهـذه ليسـت صورتـك، وكلّهـا كـذب ولا تعنيـني أدلّتكـم المهـم مـا أقتنـع بـه أنـا فقـط، فـإن فعلـت ذلـك أمكـن للمحامـي أن يعمـل بعـد ذلـك، وإن لم تدافـع أنـت عـن نفسـك بهـذه الطّريقـة، فـلا تتوقّـع أن ينفعـك أحـدٌ بعـد ذلـك.

أكتفـي بهـذه الوسـائل الّـتي يسـتخدمونها لإدخـال نفسـيّة الأسـير في حالـة إغـراق مـن الإحبـاط واليـأس والقنـوط، لينطلـق تفكـيره مـن مبـدأ الضّـرورة، واختيـار اليـأس، وخلخلـة اتّـزان فـؤاده، وقـد بيّنـتُ ضـرورة الإعـراض عـن كلّ هـذه الوسـائل، والثّبـات بقـوّة وحـزم.

ننتقـل للحديـث عـن خواطـر الأسـير وخياراتـه مـع (العصافـير)، ثـمّ نتبعهـا بالحديـث عـن خواطـره مـع المُحقّقـين أنفسـهم إن شـاء الله تعـالى.

(٨) وصف الزّنزانة وحالة الدّخول إليها

أوّل ما يُعتقل الأسير يوضع في زنزانة صغيرة، لا نوافذ لها، ولا زجاج، ولا تصلها الشّمس، إنّما فتحة تهوئة من السّقف أو الحائط تعمل على الدّوام، مساحتها متران أو ثلاثة في الطّول وفي العرض، لونها أسود يميل إلى الرّماديّ، كئيبة، إضاءتها صفراء بين المتوسّطة والضّعيفة، تبقى مضيئة على الدّوام، حائطها ليس بالأملس المريح، بل مدبّب برشقات (باطون) كقطرات المطر. خلاؤها فيها ضمن النّطاق الضّيّق، لا باب له ولا ساتر، قد يُقابله باب الزّنزانة مع طاقته الصّغيرة المُغلقة، الّتي قد تُفتح بأيّ حال، وخلاؤها أرضيّ غير مرتفع، لا ماء عنده للاستجمار، يُستخدم الورق، وقد يتفضّلون عليك بقنينة أو يمنعونك منها، فيها (حنفيّة) ماء تعمل على الدّوام.

لا سرير ولا وسادة، بل فراش رقيق بائس، وأغطية صوفيّة قد تعمل في جلدك الحكّ والاحمرار، يُسمح مرّة واحدة في اليوم بالاستحمام في زنزانة أخرى مُعدّة لذلك، قد لا تغيير ملابس، ولربّما لا تغّير ملابسك الدّاخليّة أيضًا..

يتمّ إيقاظك كلّ يوم مرّتين صباحًا ومساء بصراخ وجلبة، تُفتح الطّاقة فيجب الوقوف للعدد، لحظة ويذهبون، وتحصُل على ثلاث وجبات في اليوم، غالبًا يُمكنك انتقاء ما تأكله من وجبة الفُطور، وباقي طعامهم مثل وجوههم، لا تخرج من الزّنزانة إلّا للتّحقيق أو للمحكمة، وبين هذه وتلك تعصم الأعين وتقيّد الأيدي والأرجل، وقد تكون في الزّنزانة وحدك أو معك شخص وهو الغالب أو أكثر..

عند وصوله للمُعتقل أوّل الأمر ..في هذه الحالة تكون نفسيّة الأسير مضطّربة متحيّرة، وأكثر ما يشغل ذهنه هل سيتلقّى ضربًا وتعذيبًا أم لا، يكون ذهنه منشغلًا بهذا الاتّجاه أكثر، وفي الطّريق إلى الزّنزانة قد يتعمّدون رفع الغطاء عن عينك لتُبصر سياجًا خلفه معتقلون، بحالة رثّة جدًّا، كأنّهم ذاقوا من العذاب والويلات ألوانًا عديدة ووقتًا طويلًا، وجوههم بائسة، ثيابهم ممزّقة،

بـل قـد يجلسـونك في غرفـة لتسـمع صوتًـا، كأنّـه شـرطيّ يصرخ في أسـير ويقـترب منـه، فيقـول الأسـير برعـب وذعـر: «لا لا، لا تفعـل، ابتعـد، لاااا ..» ثـم يبـدأ الصّـراخ، يعلـو ثـمّ يعلـو، ثـمّ يخالطـه بـكاء وانهيـار، كمـن فُـضّ بكارتهـا !

اطمئـنّ أنـت الآن في (هوليـوود) كلّ مـا تـراه تمثيـل، ومـا سمعتـه تسـجيل، أو (مسـخرة) لا أكثـر، تأكّـد كلّ مـن تـراه موجـود ليعمـل علـى خداعـك، هـؤلاء القـوم يميلـون للخديعـة والعمـل علـى الحالـة النّفسـيّة أكثـر مـن التّعذيـب والضّـرب، لا أعلـم أنّهـم يلجـؤون للتّعذيـب إلّا إن تيقّنـوا أنّ التّعذيـب يكـفّ قتـلًا أو عمـلًا قريبًـا، أو ممّـن وراءهـم أسـرار تنظيميّـة لمجموعـات قتاليّـة مباشـرة، وغـير ذلـك لا تعذيـب، ومـع ذلـك لا يمنـع تغيّر الأحـوال وتبدّلهـا، خاصّـة مـع المعتقلـين مـن غـير أهـل الدّاخـل، فاحمـل نفسـك علـى كلّ احتمـال، وحـدّث نفسـك بالأسـوأ لتجـد الأسـهل والأيسـر، وتذكّـر أنّ هنـاك فريقًـا كامـلًا مـن الموظّفـين الّذيـن يتقاضـون الأجـور ليخدعـوك ثـمّ يخدعـوا مـن يأتـي بعـدك، هـذه مهمّتهـم وعملهـم كلّ يـوم، وكلّ يأخـذ دوره ليكتمـل المشـهد مـن عامـل النّظافـة إلى السّـجين إلى السّـجّان.

حـدّث نفسـك بالصّـبر والثّبـات والقـوّة والعزيمـة والاسـتعانة بـالله، مـع كلّ مـا سمعتـه وعلمتـه، إن كنـت مؤمنًـا تذكّـر مـا أقولـه لـك، سـتجد لـذّةً ونعمـة وتستشـعر لُطـف الله بمـا لا تستشـعره في أيّ مـكان آخـر، إن كنـت مؤمنًـا سـتتنعّم وهـم لا يعلمـون، إن كنـت مؤمنًـا سـتعرف معيّـة الله والأنـس بـه، ففكّـر مـن هـذا المنطلـق، وتذكّـر مـن قبلـك مـن الأنبيـاء والصّدّيقـين والصّالحـين والشّـهداء، لاقـوا أضعـاف ذلـك بكثـير فاثبـت ولا تخـشَ إلّا الله وادفـع عنـك خشـية أذيّتهـم وأفعالهـم، أبشـر أنـت مـع الله فـلا تبالـي.

(٩)

عندمـا تنتهـي إجـراءات التّمثيـل والتّخويـف والتّفتيـش والتّصويـر والتّسـجيل، تبـدأ نفـس الأسـير بالسّـكون قليـلًا مع وجـود شـيء مـن الاضطّـراب، وعنـد دخولـه للزّنزانـة سـيتذكّر أنّـه قـرأ وسمـع عـن

(العصافير) ويتوقّع أنّه سيُقابل أحدهم الآن، ووفق تصوّره، وحسبما قرأ عن العصافير، سيستعدّ لمقابلة رجلٍ مُلتحٍ يداوم على قراءة القرآن والصّلوات، وسيبقى ملتصقًا به بكلّ دقيقة في محاولة لانتزاع المعلومة منه.. والواقع أنّ الأمر ليس بهذه السّذاجة.

يدخل إلى الزّنزانة فإذا بها خالية من سجين آخر، أو ينادي السّجّان عند وصوله إلى باب الزّنزانة صديقه، ويقول: «في أي زنزانة أضعه؟» ، فيجيب ذاك: «لا يهمّ رقم ٦ أو ٧ لاحقًا نرتّب الأمور ؟ الآن استعجل عندنا عمل ! »، هذه حركة خبيثة تلقي في ذهن الأسير أنّ دخوله الزّنزانة أو التقاءه بأسير فيها ليس مقصودًا ولا مرتّبًا، فيعطيه نوع اطمئنان للسّجين الموجود معه في الزّنزانة، ويظنّ أنّ مرحلة العصفور ستأتي لاحقًا وليس الآن.

وقد يقوم السّجّان بفتح الزنزانة رقم ٦ فيصرخ المساجين فيها أنّ الزّنزانة مليئة ولا نريد أحدًا، هذه حركة أخرى بين السّجّان والعصافير، حينها ينتاب الأسير شعورٌ بالنّفرة، ويتمنّى لو أُبعد عن هؤلاء الأجلاف، فأيّ خيار يُعرض عليه لاحقًا يرتاح له ويودّ لو تمسّك به.

وهو هنا قد يسأله السّجّان أتريد الدّخول هنا أم للغرفة رقم ٧، فيبادر باختيار رقم ٧، وحتّى أريحك من عناء التّفكير والتّحليل تذكّر دائمًا أنّك في (هوليوود) ومن المستحيل أن تلتقي بأحدٍ هناك صُدفة، ومن المستحيل قطعًا أن تحدث مثل هذه الأمور من غير ترتيب مُحكم ومنسّق ومسجّل على الأوراق أيضًا، وتذكّر أنّ هناك جيشًا من العملاء ستصادفهم ليس في الزّنزانة فحسب، بل في الممرّ للحظة، وفي غرف الانتظار وفي سيارة نقل الأسير وعند الطّبيب، وفي كلّ مكان، كلّهم يعملون لإكمال المشهد، بعضهم لا يخاطبك بتاتًا ولكن دوره إكمال المشهد، كلّهم يعملون للإيقاع بك وبعقلك.

قلنا إنّ الأسير في هذه المرحلة يكون بحالة من الإغراق النّفسيّ في اليأس والإحباط، وهو يظنّ أنّه فقد أيّ بصيص من الأمل، لذا قد يقع في ذهنه أنّ هذا الأسير في زنزانته عصفور بنسبة ٩٩٪، وقد يكون صادقًا بنسبة ١٪، وبما أنّه يظنّ أنّه غريق ولا مجال للنّجاة فسيبني الاحتمالات،

وسيتّخذ القرارات بناء على الـ ١٪ ثمّ يكشف أسراره مغامرةً وبناءً على أمل ضئيل، كمشهد من يرى ولده بعد حادث وهو متيقّن من موته، ولكن لا زالت نفسه تراوده لعلّه يقوم، لعلّه لم يمت، لعلّي أحلم وأتخيّل وبعد قليل أستيقظ، الأسير بحالة اندهاش، ويحاول الفرار من الواقع الّذي تفاجأ به لحظة، وأشعره بتحطّم كلّ دنياه وآماله، فلا تتعجّب أن يبحث عن أيّ بصيص أمل مهما كان معدومًا.

تذكّر يا أخي أنْ لا حاجة أن تفكّر بهذا الأسلوب، حصّن لسانك وقلبك وتوكّل على الله، ودع كلّ هذه الاحتمالات، هذه مرحلة قصيرة ستنقضي بعد أسابيع ثمّ تعود لبيتك أو تلتقي بالمحامي وتفكّر بشكل أفضل، ضع لك قاعدة أنّ كلّ شخص تلتقيه في أثناء الاعتقال والتّحقيق هو عصفور لن أعطيه أيّ معلومة، حتّى لو كان والدك وإخوتك وأحبّ النّاس إليك، حتّى المحامي نفسه.

هكذا تعامل مع الأمور، فإنّه لو لم يكن من تحدّثه عصفورًا فكاميرات المراقبة والتّسجيل مبثوثة بكلّ زاوية، ومهما أخفضت صوتك فهي من الحساسية بما يجعلها تلتقط أبسط أنفاسك، فاصمت، ثمّ اصمت، ثمّ اصمت.

(لاحظ قبل أن أُكمل، أنّ هذا مشهد مُحتمل ولا يلزم أن تجد ذات المشهد في كلّ مرّة، فقد تتغيّر أساليب التّمثيل، ويتبدّل السّيناريو).

(١٠)

يدخل الأسير الزّنزانة وفي رأسه ألف هاجس، وفي رفقته غالبًا عصفور يمثّل دور الأسير المُنهك، فالأسير يعلم أنّ العصفور يكون بلحية يقرأ القرآن ويقوم اللّيل، ولكن هذا حليق، ولا يبدو عليه أيّ أثار التّديّن !

والأسير يعلم أنّ العصفور سيقفز إليه مباشرة ليسأله عن قضيّته ويعمل على ضغطه، لكن هذا لم يسأل الأسير شيئًا، بل أعرض عنه، بل لا يريد الحديث معه، بل تصدر منه إشارات توحي أنّه خائف منك، متوجّس من تصرّفاتك، يشكّ بك أنّك أنت العصفور، وهذه أقذر حركة من

العصافير، هـذه الحركـة منهـم تولّـد عنـدك شعورًا استفزازيًّا مناقضًـا، ومـع مـا رأيتـه مـن حـركات وعلامـات (تمثيليّـة) انطلـت عليـك، سيقع في ذهنـك أنّـه مـن المسـتحيل أن يكـون هـذا عصفـورًا، إنّمـا العصفـور سيأتي في مرحلـة لاحقـة، وسـتنفجر داخليًّـا إذ ترمقـك عينـاه، وترميـك بالخيانـة ! تتولّـد عنـدك مشـاعر غضـب، وتحـاول بـأيّ طريقـة أن تُثبـت لـه أنّـك شـريف وصـادق، ولسـت عميـلاً.

قـد يسـتغرق أيّامًـا لا يسـألك عـن قضيّتـك فضـلاً عـن تفاصيلهـا، بـل قـد لا يسـألك طـوال مُـدّة الأسـر، هـؤلاء النّوكـى لا يعملـون علـى انتـزاع المعلومـات منـك بالقـوّة، بـل يعملـون علـى محـاكاة نفسـيّتك لتُبـادر بالحديـث أنـت وحـدك، مـن تلقـاء نفسـك.

ومـع تولّـد مشـاعرك الجديـدة، وانشـغالك بإثبـات براءتـك أمامـه، سـيتحدّث هـو عـن بطولاتـه الّـتي فعلهـا، والّـتي هـي قريبـة مـن قضيّتـك، وعـن لا مبالاتـه، لتبـدأ أنـت بشـكل عفـويّ تتمتـم بغبـاء، وتُدلـي بمـا عنـدك.

لـذا أخطـر مراحـل الأسـر ليـس الشّـدّة والتّضييـق، بـل الرّخـاء وعـدم الانتبـاه للمحـترزات الأمنيـة هنـاك، تذكّـر مـرّة أخـرى أنـت في (هوليـوود)، الـكلّ يمثّـل عليـك، بـل يُمثّـل علـى عواطفـك.

(١١)

مـع حالـة الإغـراق في اليـأس الّـتي تُرصـد للأسـير وهـو يسـتعلي عليهـا بقـوّة الإيمـان، وتسـليم أمـره لله، ينتابـه شـعور بالوحشـة، حيـث لا صديـق ولا رفيـق ولا زوجـة ولا ابـن ولا وأهـل، في تلـك الأجـواء تجـده يريـد الحديـث، الحديـث مـع أيّ شـخص حتّـى لـو كان يعلـم يقينًـا أنّـه عصفـور، لذلـك تجـده يتسـاهل تبـادل أطـراف الحديـث معـه.

العصفـور يسـعى كمـا قلنـا سـابقًا أن يبـدأ الحديـث منـك دون أن يسـألك، وهـو مـع ذلـك يبـثّ إليـك معلومـات مغلوطـة، فيُخـبرك عـن قوانـين كاذبـة، فيزعـم أنّ عليـك الجـواب أو تسـوء حالتـك قضائيًّـا، تذكّـر أنّـه ليـس عليـك تُهمـة ثابتـة فـلا مجـال للاعـتراف، وعـدم الـكلام لمصلحتـك.

ويُخـبرك أنّـك إذا انتقلـت مـن الزّنزانـة إلى السّـجن العـام، حيـث تكـون أجنحـة وسـجناء عـدّة وسـاحة

(الفـورة)، وطعـام وشـراب علـى مسـتوى، فهـذه علامـة أنّـك أنهيـت مرحلـة التّحقيـق، ونقلـوك للسّـجن لحـين خـروج قـرار المحكمـة، والحقيقـة أنّـه يمهّـدك للمرحلـة القادمـة وهـي الانتقـال مـن الزّنزانـة والعصفـور الفـرديّ، إلى السّـجن حيـث توجـد أجنحـة فيهـا مـا يُقـارب الخمسـة عشـر أو عشرين أسـيرًا، كلّهـم عصافـير، كلّهـم يعملـون لخداعـك أنـت فقـط. (سـنأتي علـى هـذه الحالـة لاحقًـا بـإذن الله)

يسـعى إلى إحباطـك، وتقزيـزك مـن الطّعـام، ويقـترح عليـك أمـورًا تفعلهـا ليسـتغلّها السّـجّان أو المُحقّـق، فقـد يقـترح عليـك أن تطـرق البـاب بقـوّة حتّـى يسـتجيبوا لـك، أو يحدّثـك عـن شـخص تظاهـر بالجنـون فانطلـت عليهـم الخدعـة وأطلقـوه، وأمـورًا كهـذه في غايـة التّفاهـة، ولـو جرّبتهـا لسـاء حالـك، ووجـدوا المـبرّرات ليغـيّروا طريقـة التّصـرّف معـك.

يقـوم العصفـور بالزّنزانـة بإخبـارك عـن رحلاتـه الجميلـة قبـل السّـجن، عـن رحلتـه في المنطـاد، وفي الـزّوارق، وطلعـات سـيّارات الدّفـع الرّباعـي بشـكل شـيّق يسـتثير النّفـس لتمـنّي الدّنيـا والرّجـوع إليهـا، واسـتحثاث حالـة النّـدم والإحبـاط في النّفـس.

وأنـت تسـمع هـذه القصـص حـدّث نفسـك بالآخـرة، والأجـر الّـذي تعيشـه أنـت ولا يتحصّـل لغـيرك، حـدّث نفسـك أنّـك تتقلّـب بالأجـر يمنـة ويسـرة، وأنّ عـداد الإثـم متوقّـف أو يـكاد، حـدّث نفسـك عـن معيّـة الله الّـتي تعيشـها ودعـه في سـفهه يعيـش.

(١٢) كيف تتعامل مع العصفور ؟

تذكّر أنّك بين أيديهم، فإن أظهرت له أنّك تعلم أمره، وترسل إليه نظرات التّهديد، أو عبارات الرّدع، فهذا يعني أن ينتقلوا معك لمرحلة أخرى وتجربة جديدة، ولا يضيعوا الوقت فيما لا نفع فيه، لذا يُمكنك أن تقوم بخدعه وتتسلّى عليه على راحتك، وتسترق من كلماته المرحلة القادمة، والأمر الّذي يبحثون عنه.

أحدهم أُدخل لزنزانة، فوجد فيها سمينًا نائمًا، نتن الرّيحة، خبيث المنظر، مقزّز المحضر، يُكثر الشّخير، بوله أكثر من نومه، فتولّد فيه حالة غضب، واشتداد أعصاب، وغيظ وحنق لأنّه يعلم أنّه عصفور مقزّز، فلم يقض وقتًا طويلاً معه حتّى أُخذ للتّحقيق فسألوه (وهو سؤال مقصود)، إن لم تعجبه الزّنزانة أو يريد تغييرها، وبالطّبع لا مجال للدّلع هناك ولا للسؤال، ولكن لغاية أرادوها، فقال: «أريد النّقل»، فنقلوه لزنزانة أخرى فيها شخص آخر لا يحمل تقزيز الأوّل.

هذه الحركة منهم ولّدت في نفسه شعورًا الفرار من الأوّل والتّشبّث بالآخر، ومحاولة التّقرّب منه، فاحذر من هذه الألاعيب، ثمّ تذكّرَ أنّ اشتداد أعصابه وعيشه في حالة ضغط، ليس لصالحه بل لصالحهم، والأصل أن يُحافظ على هدوئه وبرودة أعصابه وتركيزه، لذا قرّر أن يقوم بخُطّة جميلة أكسبته.

الخُطّة هي أنّه أقبل للعصفور فسلّم عليه بحرارة، فتظاهر العصفور بالإعراض، ثمّ قال للعصفور: «ما شاء الله وجهك يبثّ نورًا، سيماك في وجهك، ليس كذاك الّذي كنت عنده»، والحقيقة أنّ وجهه كأسفل النّعل الخارج من زريبة !

ما فعله هو أنْ قام بخداع العصفور بأنّه انخدع به، ولا تستغرب أنّه وأثناء الحديث معه كان العصفور يتمالك نفسه بصعوبة من الضّحك، وكذا حصل مع السّجّانين، المهم أنّ هذا الأسير بدأ يبثّ للعصفور المعلومات الّتي يريدها هو، ويوجّههم لما يريده.

من ذلك، أنّ العصفور سأله عن العصافير: «هل سمعت عنهم شيئًا ؟»، قال: «سمعت قليلاً،

هل يوجد منهم هنا ؟»، تمرير هذه العبارة تُعطي المُحقّقين نوع مصداقيّة لأيّ كلمة يقولها الأسير للعصفور.

فمثلاً قال له العصفور: «أنا اعترف عليّ صديقي ثمّ حُكمت وضوعف الحكم لأنّني لم أعترف» ، إن أقرّ عليك شخص فلن ينفعك الإنكار، فقال له الأسير: «الغريب أنّ في قضيّتك اعترفوا عليك بصدق فأنت كما أخبرتني فعلت فعلاً كذا وكذا، ولكن أنا ما أستغربه بشكل شديد لماذا اتّهمني أصدقائي بالكذب ! وأظهر شدّة تأثّره» .

فهو بذلك مرّر رسالة أنّه فعلاً ليس له علاقة بالتّهمة، وأنّه صدّق أكذوبة الاعتراف، سأله العصفور: «ماذا تفعل لو التقيت به؟»، فانتبه الأسير مباشرة أنّهم يريدون التّأكّد من جدوى جعلهم يلتقون، وهو يريد ذلك لتحذير صديقه، فأجابه بمكر وقال: «هناك أمور مهمّة سأقولها دعك من الموضوع».

ولا تعجب أنّهم فعلاً دبّروا له لقاء مع صديقه داخل الزّنازين، حيث وضعوا صديقه في زنزانة قريبة، ليجد ثقبًا في الزّاوية تمرّ منه (ماسورة) فيناديه ويسمعه، والثّقب واللّقاء مقصود، وما أن قال له: «احذر العصافير» وهمّ بتحذيره حتّى فُتح عليه الباب ووجد السّجّان فوق رأسه وقام بإخراجه.

وكان ممّا سأله العصفور: «ما رأيك بالمحقّق الفلاني، والعلّاني»، وهو يوصل لهم ما يريد، والخلاصة من هذه القصّة أنّه يسعك خداعهم وتضليلهم بذكاء كما يسعون هم لخداعك وتضليلك.

وقد يقول قائل: ما الفائدة من الحديث معه والدّخول في متاهات؟، خاصّة وأنّني خلال الحديث قد أزلّ وأخطئ ويصدر منّي أشياء مع الإعياء والتّعب لا ينبغي أن أقولها.

أقول: احترازك وحذرك في مكانه، لكن قليل تلك النّفوس الّتي تصبر على الصّمت الطّويل، أنت تتحدّث عن أيّام وليالٍ طوال، والصّمت لمن لم يعتد عليه قد يثير حالة من الإعياء والغليان، فهذه وسيلة أدعها محلّ الاختيار والتّجربة للتّنفيس عن النّفس بشيء من الدّردشة، ولا شكّ أنّه ينبغي أخذ أشدّ أنواع الحيطة والحذر أثناء الحديث معه.

(١٣) مصيدة التّضييق ثمّ التّنفيس

يكون ذلك بوضع الأسير في السّجن الانفراديّ، لا يُقابله أحد، لا يُحادثه، بل لا يُطلب للتّحقيق لفترة أيّام أو أسبوع أو أكثر، ممّا يتولّد عند الأسير حالة من الضّجر، والوحدة، والتّعب النّفسيّ، والرّغبة في الحديث مع أيّ شخص كان، ولو كان عميلاً بيقين (بالمناسبة حفظ القرآن يفيدك كثيرًا جدًّا بهذه الحالة).

المهمّ أنّه بعدها يُنقل ويوضع معه شخص فيبادر هو بالحديث مع العصفور، وتذكّر أنّ نفسيّة الأسير تستدعيه للحديث بأيّ شيء كان، ولا تنسَ مسألة الإغراق النّفسيّ وتعلّقه بأيّ وهم وأمل، أملك بالله فقط لا غير.

وتخيّل دائمًا شبح كاتب هذه الكلمات يخرج إليك ويدعوك للصّمت والسّكوت، كلّما حدّثتك نفسك بأنّ هذا العصفور صادق وليس عصفورًا، تخيّلني أمامك أقول لك: «اخرس يا واهم لست أوّل أسير، ونحن أخبر منك، لا تكن مطيّة وأخدوعة لهم! أبوك لو وجدته في الزّنزانة فهو عصفور إلى أن تخرج من الأسر!» هكذا تعامل مع واقعك، أسئ الظّنّ بكلّ شخص تراه.

(١٤) خُدعة ثقب الزّاوية

أشرت لها وأعيد لإفرادها، أحيانًا توضع في زنزانة بعد فترة الانفرادي أو من غيرها، وأنت جالس تنتظر التّمثيليّة الجديدة تسمع صوتًا.. تنظر.. فإذا بالصّوت يأتي من ثقب صغير يكاد يتّسع (لسيجارة) يُناديك عصفور أو أكثر من الزّنزانة الأخرى، يُحدّثانك عن آهاتهم ومعاناتهم الشّبيهة بمعاناتك فتستأنس بهم، وبما أنّ الحديث عبر ثُقب تتوهّم أنّه لا يعلم به أحد، تأخذ راحتك بالحديث وإرسال التّوصيات العابرة للقارّات أو كشف بعض أسرارك.

اسمع.. دعني أخبرك شيئًا مهمًّا.. كلّ زنزانة فيها كاميرا، ومن خلال التّتبّع والتّحسّس وعمل بعض التّجارب تبيّن لي أنّ الكاميرا غالبًا موضوعة في داخل بيت المصباح في السّقف، ولا يمنع وجود غيرها، وكلّ زنزانة فيها مجسّات لنقل الصّوت، أقول أدنى صوت يُنقل بها، وفي مثل هذه الظّروف تكون متابعتك بشكل مباشر، اليوم تستطيع أنت شراء (مايكرفون) يلتقط أصغر تمتمات تُطلقها في داخل فمك لا يسمعها من يضع أذنه عند فمك، والتّقنيات الحديثة معروفة في هذا المجال.

وقد قدّر الله لي أن رأيت غرفة مليئة بأجهزة التّلفاز الصّغيرة لمُتابعة كلّ أسير في غرفته، فدعك من أوهام المصادفة، لا يوجد هناك مصادفة، لا يوجد ثقب لا يعلمون به، لا يوجد كلمة لا تمرّ عليهم، هناك موظّفون جالسون مهمّتهم متابعة كلّ حركة وكلمة ونفس منك.

أقول ذلك لتعلم ولا تسوّل لك نفسك التّساهل، فأحيانًا يوضع عصفور في الزّنزانة المقابلة وأحيانًا يوضع صديقك الّذي تعلم يقينًا أنّه من الصّابرين ولا يكذب ولا يخون، إن وجدته هناك لا تحدّثه، أو حذّره مباشرة من هذه الوسائل لتجد السّجّان جاثم فوق رأسك يَنتقل بك لمرحلة جديدة.

كن كيّسًا فطنًا ولا تدع الأوهام والأحلام تأخذك بعيدًا، لا فائدة الآن من تحذيره أو تنبيهه أو إرسال معلومة للخارج، لن تخرج إلّا عن طريقهم، افهم ذلك، وافهمهم جيّدًا.

(١٥) خدعة اللّقاء العرضيّ

أحيانًا يكون بودّك إيصال معلومة للخارج أو لصديقك المسجون في قضيّتك، وتنتظر الفرصة للقائه وإمرار معلومة له، خاصّة أنّ المُحقّق يوهمك بعبارات فضفاضة انكشاف كلّ شيء، وهذا خطأ فادح، انسَ كلّ شيء، واتركه على ما هو عليه، فلن تصله قطعًا إلّا أن يكون لقاؤكم مسجّلًا أو عن طريق عصفور، هم يستغلّون هذه الخواطر الدّائرة في ذهنك، فيعملون على إيهامك بحصول لقاءات عابرة عارضة، تُحاول أنت استثمار الفرصة فيها.

قد تذهب للطّبيب وقبل الدّخول عليه أو بعد ذلك توضع لدقائق معدودة بشكل سريع، في قاعة انتظار فيها شخص آخر، قد لا يُبادر للحديث معك، حتّى تتبسّم في وجهه ويتبسّم في وجهك، وتدعو لبعض، لحظات سريعة لا يُخيّل إليك أنّ القدرة (الهوليووديّة) تصل لدرجة وضع عصفور لدقائق قليلة. وربّما تكون تحت ترتيبات تجهيزك لنقلك للمحكمة، وأثناء ذلك وعند السّير في الممرّ، ينادي سجّان آخر أنّ معه أسير آخر، فيُدخلك لغرفة أو زنزانة لدقيقة أو لحظة حتّى يمرّ ذلك الأسير ولا تلتقيان، وفي الغرفة شخص آخر، والسّجّان يراقبك ثمّ يتركك للحظات، هذا الّذي بالزّنزانة عصفور لن تتخيّل ذلك ولن تتوقّع ذلك لإحكام المشهد، لكن تأكّد هو كذلك، ولقاؤك به ضمن الخطّة المرسومة لك، قد تُنقل في السّيّارة للمحكمة فيضعون معك أسيرًا آخر يُنقل للمحكمة أو سجن آخر، هو عصفور أيضًا.

أنت كموقوف أمنيّ ممنوع أن تلتقي في الفترة الأولى بأيّ شخص، فخفّف عن ذهنك التّفكير، كلّ من تلتقيه عصفور، وإذا حدّثتك نفسك أنّه ليس كذلك، وإن أشار إليك بأنّه قد يلتقي بصديقك، تذكّر شبح كاتب هذه الكلمات يخرج إليك فجأة، ويقول لك: «اخرس هذا عصفور لا تصدّقه ولا تسمع له» .

إن قرأت هذه العبارات فستتذكّر قصّة الشّبح هذه جيّدًا وستنفعك بإذن الله -كفّ الله عنّا وعنكم السّوء والأذى-.

هذه بعض ما قد تظنّه مصادفات عابرة، لا يلزم تحقّق ذاتها فربّما يتغيّر (السّيناريو) قليلاً، لكن غالبًا يقع الشّباب بنفس الطّريقة منذ عقود، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

(١٦) اللقاء بالصّديق أثناء فترة الاعتقال

قـد تلتقـي بصديقـك ليُسـمع تفاصيـل كلامكـم، تذكّـر أنّـك بنفسـيّة تتـوق لأن تـرى أيّ شـخص تُحادثـه، في الفـترة الأولى لـن تلتقـي محاميًـا فضـلًا عـن أهلـك، لا يتيحـون الفرصـة لأن تلتقـي بـأيّ شـخص إلّا عملائهـم أو صديقًـا يسـترقون المعلومـات أثنـاء حديثكـم.

بشـكل طبيعـيّ سـتلتقيه وتحتضنـه، وسـيدور بينكـم حديـث عـن الاعتقـال وتفاصيـل التّحقيـق، وقـد تضـع صوتـك في داخـل أذنـه بصـوتٍ خفـيّ بآخـر اللّيـل، ظنًّـا منـك أنّهـا لـن تصلهـم، تجنّبـوا ذلـك، تجنّبـوه كلّيًـا، لأنّ الحديـث حتّـى لـو كان بحـذر لـن يفيدكـم وسـيقع فيـه أخطـاء، بـل قـد لا يصـدر منـه معلومـات هامّـة، ولكـن يلفـت انتبـاه المُحقّـق إلى زوايـا مهمّـة تثـير اهتمامكـم.

لا تضـع فمـك في أذن صديقـك لتهمـس لـه شيئًـا، فلـو فعلـت تأكّـد أنّ صديقـك قـد لا يسـمعك، وأجهـزة التّنصّـت تسـمع بشـكل دقيـق وعالـي الحساسـيّة، أجهـزة التّنصّـت موجـودة في كلّ مـكان، ولا تتوهّـم وجودهـا في الزّنزانـة فحسـب، بـل موجـودة في سـيارة النّقـل وفي الممـرات، وفي اللّقـاءات العارضـة، بـل لا تسـتغرب وجودهـا في المحكمـة.

قـد تلتقـي بصديقـك في الزّنزانـة، أو في زنزانـة مُجـاورة، يمكـن انتقـال الصّـوت بينهمـا، قـد تلتقيـه بعـد إرسـالك لمركـز الشّـرطة لأخـذ بصماتـك وتجهيـز ملفّـك اسـتعدادًا لتقديـم لائحـة اتّهـام ضـدّك في اليـوم التّالـي، هكـذا يكـون السّـيناريو والتّمثيليّـة، وفي اليـوم التّالـي لا تكـون لائحـة اتّهـام بـل تعـود لبيتـك. ولكـن هـذه محاولـة أخـرى منهـم لآخـر يـوم قبـل خروجـك، حيـث تلتقـي بصديقـك في مركـز الشّـرطة، ثـم أثنـاء التّرتيبـات يُجلسـونك بجانبـه، والشّـرطيّ يصـرخ عليـك لا تتحـدّث معـه، ولكـن دون مراقبـة وتشـديد، دعـك منـه هـذا تمثيـل، ينهـاك عـن الحديـث معـه للتحـدّث معـه، ثـمّ قـد ترجعـان للمعتقـل في نفـس السّـيّارة، لتأخـذ راحتـك في الاسترسـال بالحديـث.

كلّ المناطـق ملغومـة، فيهـا أجهـزة تنصّـت، سـواء مركـز الشّـرطة أو السّـيّارة أو الزّنزانـة أو أيّ مـكان، لـذا لا تتحـدّث، لا تتكلّـم، لا تنطـق بشـيء، كلّ مـا حولـك عصافـير وأجهـزة تنصّـت، فكـن حـذرًا يقظًـا علـى الـدّوام.

(١٧) خواطر ما بعد التّعرية الكاملة

العديـد مـن السّجون، عندها ترتيبـات ومحـترزات عنـد دخـول الأسير وخروجـه، ومنهـا مـن يقـوم بتعريتـه كامـلاً في كلّ مـرّة يتوجّـه للمحكمـة ويدخـل السّـجن مـن جديـد، تعريـه وتجـرده مـن كلّ أنـواع اللّبـاس، وقـد يُرافـق ذلـك طلـب أن يقـوم بحـركات لا تقبلهـا الفطـر السّـويّة ليتأكّـدوا مـن عـدم إخفـاء شـيء في المواطـن الحسّاسـة، بعـض أصحـاب العـزم عندهـم الاسـتعداد للمواجهـة والمصادمـة والمضاربـة، ثـمّ تُنفّـذ التّعريّـة بالقـوّة أو يُـترك، وبعضهـم يسـتجيبون مُكرهـين علـى ذلـك.

المهـم أنّ هـذا الأمـر، مـن أكثـر الأشـياء الّـتي قـد تثـير ذهنـه، وتمـلأ قلبـه، وتقتلـه حنقًـا وغيظًـا، وخشـية الفضيحـة والعـار، وتبقـى في الأيّـام الأولى خاصّـة، تـراوده أحـلام اسـتغلال تصويـره بتلـك الحالـة بشـكل خفـيّ.

اضطّـراب النّفـس وكثـرت التّفكـير مُهلـك بـكلّ مـا تعنيـه الكلمـة مـن معنـى، والتّوتّـر الدّائـم في ظـلّ العُزلـة، ودوام التّفكـير السّـلبيّ في ظـرف ليـس لـه فيـه سـوى التّفكـير والتّأمّـل مُتعـب جـدًّا، لا أقـول إنّ الأمـر عـاديّ، ولكـن تعامـل معـه علـى أنّـه عـاديّ وأقـلّ مـن العـاديّ، وتذكّـر أنّ قبلـك الكثـير وقعـوا بنفـس الحالـة وبنفـس الظّـرف، وحصـل معهـم مـا حصـل معـك، ولم نسـمع عـن أحـد اسـتغلّ أمـر كهـذا ضـدّه.

قـد يحـدث في يـوم مـا، ولكـن لا تأبـه فـاللّه معـك، واللّه يعلـم سـريرتك، مقصـدك وغايتـك وليفعـل الأوغـاد مـا شـاءوا سـيكفيكهم اللّه، لا تفكّـر بهـذه الأمـور غـير المهمّـة، مـا عنـدك موجـود عندهـم وعنـد كلّ واحـد، تغافـل عـن هـذا الأمـر ولا تُشـغل ذهنـك بـه، كـن أسـدًا جبـلاً صابـرًا واللّه حسـبك ونصـيرك.

(١٨) الانتقال من الزّنزانة إلى السّجن

الزّنزانة تختلف عن السّجن، والتّوقيف يختلف عن الأسر، فما تحدّثنا به عن شكل الزّنزانة وطبيعتها وجوّها ليس دائمًا، بل هي بمعدّل من أسبوعين لثلاثة لمن لا تثبت عليه تهم، وليس عندهم ضدّه لائحة اتّهام، وقد تطول لستّة أشهر لمن تمكّنوا من تخييط تهمة ضدّه، وهذه المعدّلات هي بحسب التّعامل مع فلسطينيّي الدّاخل، أمّا فلسطينيّي الضّفّة وغزّة، فالضّغط عليه أكثر، والمعاملة معهم أقسى، والمدد أطول، فقد تختلف التّفاصيل من حيث الشّدّة والرّخاء، ولكنّها بالجملة بنفس الهواجس النّفسيّة.

الزّنزانة لفترة التّحقيق، والسّجن بعد الانتهاء من التّحقيق، فيوضع به لانتظار المحكمة أو بعد صدور القرار بحقّه، ليقضي فيه عقوبته، والسّجن مكوّن من أجنحة، في كلّ جناح ثلاثة غُرف مستقلّة وساحة مشتركة، عدد الأسرى في كلّ غرفة قد يصل لخمسة أو ستّة أكثر أو أقلّ، الغرف نظيفة مع أسرّة ومخدّة وغطاء، لا كالزّنزانة تنام على فراش رقيق، وغطاء مقزّز، ولا وسادة لك أو (مخدّة)، وقد تأكلك الفطريّات بسببها.

السّجن فيه خلاء نظيف مرتّب مع باب، وفيه ماء وتلفاز ووسائل عيش أفضل من الزّنزانة، هناك نظام مرتّب معروف بين الأسرى، كلّ غرفة لها أمير، وللجناح أمير عام، الطّعام لذيذ، تُدخل فيه بعض أطعمة الرّفاهية، في السّاحة طاولة (تنس) وكرة طائرة، ترى الشّمس مباشرة وتعرّض نفسك لها، هناك وقت للقراءة، ووقت للطّعام، ووقت للتلفاز ووقت للحديث ووقت للنّوم، ووقت للفورة (أي الخروج للسّاحة).

لا يوجد سجّان في الجناح، ولا تتعامل مع السّجّانين مُطلقًا إلّا عند دخولهم مرّة أو مرّتين في اليوم لعدّ الأسرى، ولا تحقيق ومحقّقين ولا استجواب، هذا واقع سريع لمعرفة الفرق بين السّجن والزّنزانة، فكيف يُستغلّ هذا الواقع في تضليل الأسير ؟

بعد أسبوع من الاعتقال، ومرور جولات طويلة من التّحقيقات، وتقليلها شيئًا فشيئًا، ينتاب

الموقوف شعور بالطّمأنينة والهدوء، ينتابه شعور بأنّه ينزل عن الجبل شيئًا فشيئًا، وأنّ ساعات التّحقيق تتناقص، وضغطه يقلّ، وأنّه بدأ ينتصر عليهم، ومن ثمّ يمتلك ثقة أكبر، وتعوّدًا على الواقع الموجود.

هذه الثّقة والهدوء النّفسيّ مقصود، ويَبدؤون بالعمل على استغلال ثقته وإغفاله عن الحذر والأمنيّات، كما عملوا على استغلال ضعفه، فيُحدّث العصفور، أو يتحدّث اثنان فيما بينهم على سمعه عن السّجن، وأنّ المُعتقل إذا انتقل للسّجن انتهت مرحلة التّحقيق وهو في انتظار الحكم فقط، وبعدها فعلًا يُنقل إلى السّجن، ولكنّه ليس سجنًا حقيقيًّا بل سجن العصافير، حيث تجد فريقًا كاملًا من العصافير، يملؤون الغرف كلّها، بعضهم له مهمّة معك، وبعضهم ليس له مهمّة سواء إكمال العدد، وإتمام المشهد.

يسألك السّجّان قبل الدّخول لأيّ غرفة تريد الالتحاق، لأنّ في السّجون غرفًا تديرها حماس أو الجبهة الشّعبيّة أو فتح أو الجهاد الإسلاميّ، وعليك أن تختار واحدًا من هؤلاء، والصّحيح أن لا تختر أيّ فئة إذ قد تُستغلّ ضدّك.

المهم قد يوهمك أنّك في غرفة حماس، حيث الصّلاة والعبادة، واللّحى الطّويلة، والصّيام والقيام، وقراءة القرآن، وأحذّرك –أخي الكريم– من أمرين:

الأمر الأوّل: أنّنا عندنا طيبة قلب زائدة، والّذي لم يتعوّد على الخون، ولم ير الخيانة بأمّ عينه، يستصعب أن يرى إنسانًا يصلّي ويقرأ القرآن ويبكي في قراءته ثمّ يتّهمه بالخيانة، بالضّبط كواقع تعاملنا مع الحكّام الفجرة، رغم فجورهم وطغيانهم وفسادهم، نراهم مرّة يذكرون الله أو يسجدون ويصلّون أو يحجّون ويعمّرون، فيرقّ القلب اتّجاههم، ويتّجه الفؤاد نحوهم، وتُبنى الآمال عليهم، وننتظر الخير العظيم منهم وننسى بلحظة كلّ فجورهم وطغيانهم وعملاتهم وخُبثهم ! !

غالبًا –للأسف– لا نعرف توطين النّفس وتحكيم العقل، رغم أنّ الحقيقة واضحة ناصعة ! مثل هذا يحدث عند لقاء العصافير، لذا كثيرًا ما يحصل أن يدخل المرء بين العصافير، وهو يعلم أنّه داخل بين العصافير، وقرأ –كما تقرؤون– عن العصافير، ولكن عندما يحتكّ بهم فالمشهد

غير المخبر، سيتحرّك قلبه، ويتأثّر، ويدخل في صراع داخليّ.. أيُعقل هذا الّذي يبكي فرقًا من خشية الله أن يكون كاذبًا ؟! لا يُعقل لهذه الدّرجة !.. وأقول لك: نعم هو هذا الّذي يبكي عصفور عميل خبيث ممثّل جبان وضيع ! اتركونا من عقليّة الدّروشة، وبساطة العقل ! دعوا حسن النّيّة خارج السّجن، هنا تجد عملاء يمثّلون هذه الأدوار من سنين وسيذرفون الدّمع أمامك بمشهد لا يُصدّق !

ستُحدّثك نفسك أنّ فلانًا عصفور، ولكن فلان مثلي مخدوع بهم، ستبدأ تجتهد في التّمييز بين العصفور وغير العصفور، يا أخي تذكّر أنت تتعامل مع موظّفين، يتقاضون الرّاتب ليخدعوك ثمّ ليخدعوا من يأتي خلفك، كلّهم عصافير، لا مجال لأن تلتقي بغير العصافير، حتّى لو لم يسألك شيئًا، ولم يحدّثك ولم ينظر إليك هو عصفور، مهمّته أن تظنّه أنّه ليس عصفورًا، هذا قد تلتقيه في آخر يوم عند الباب فتهمس له أو يهمس لك، وقد تلتقيه في مكان آخر، وقد لا تلتقيه، فوفّر على نفسك عناء الغربلة، باختصار كلّهم عصافير، ولو وجدت أكبر إنسان تعرفه وتثق به، تعامل معه على أنّه عصفور وتجاوزه.

وحتّى لو وُضعت بين أوثق النّاس، فذلك لتطمئنّ نفسك، وتنزل بدرجة استنفارك وتأهّبك، فقد يكون العصفور عامل نظافة، أو أيّ شخصٍ هامشيّ يباغتك من مأمنك..

الأمر الثّاني: أنّك حينما تدخل تنتظر مشاهد الصّلاة والعبادة وقراءة القرآن، ولكن قد يُدخلونك لغرفة (الوطنيّين) حيث لا لحى ولا عبادة، ويشاهدون المسلسلات والأفلام، يغيّرون واقعهم قليلاً ليغلب عليه نوع مصداقيّة، لذا تذكّر دائمًا هناك حيويّة في المشهد، تغيير تبديل تعديل، فخذ قواعد ثابتة، وأسئ الظّنّ بالجميع ولا تسمع لهم ولا تُحدّثهم بشيء.

كلّما حدّثتك نفسك أنّ فلانًا صادق وليس عصفورًا.. تذكّر من جديد شبح كاتب هذه الكلمات مرّة أخرى يقول لك: «أغلق فمك سواءً كان عصفورًا أم لم يكن ! ولا تتحدّث ولا يلتفت قلبك إليهم!» وكفى الله المؤمنين القتال..

(١٩) النّاصح الأمين

في سجن العصافير قد يحذّرك أحدهم من العصافير أفضل ممّا أحذّرك أنا منهم، ويدعوك للصّمت وعدم الحديث بشفقة وحرص، وهو عصفور، وإنّما يفعل ذلك لعلمه أنّ طبيعتك في هذه المرحلة تبحث عن أيّ شخص لتثق به وتتحدّث إليه، وستفعل ذلك بشكل لا إراديّ، بل قد تبدأ بالحديث معه ويقول لك لا تحدّثني عن قضيّتك، وتوقّف لا تُكمل في هذا الموضوع، مثل هذه الحركات تزيد من ثقتك به، وتزيدك فضولًا أن تُخرج ما بجعبتك له.

تذكّر لا مكان للصُّدف، أنت في مراقبة دائمة، في كلّ لحظة وثانية، وهذه الغرف معدّة جيّدًا لتلقط كلّ عبارة تقولها هناك، ولا تلتقي غالبًا إلّا بالعصافير، كلّما راودتك نفسك للوثوق به، لا تنس الشّبح يخرج إليك ويقول لك: «اخرس وأغلق فمك، هذا عصفور لا تحدّثه».

(٢٠) تنبيه

أكثر الشّجعان وأصحاب الهمم العالية يقعون عند العصافير والمحقّقين في فترة الهدوء النّفسي لا في فترة الاضطّراب والمواجهة، في المواجهة يأخذون كامل حذرهم، وفي الرّاحة يتنازلون عن قواعد الحذر والحيطة والسّلامة !

(٢١) خُدعة مسؤول الغرفة

عند دخول سجن العصافير، وبعد الاستقبال والرّاحة، يأتي مسؤول الغرفة، يأخذك جلسة فرديّة في إحدى الغرف، يشرح لك التّعليمات، وكيفيّة التّرتيبات، ويحذّرك أنّ عندهم قواعد لا يجوز خرقها، ومنها الحديث في قضيّتك لأيّ شخص غير مسؤول الغرفة، ويزعم أنّ للأسرى منظّمة تتابع قضايا الأسرى الجدد، وتمدّهم بالمعلومات خشية الاختراق، وتسلّل العملاء والعصافير بينهم، ويقول إنّ معهم هاتف مهرّب يتواصلون به مع غيرهم، ويعرضون عليك أن تتحدّث بالهاتف إن شئت.. إيّاك أن تفعل فهذا وكلّ الموجودين غالبًا عصافير خبيثة.

ثمّ يقول لك سنجري معك استجوابًا حول قضيّتك الّتي سُجنت بسببها، وعند رفضك الحديث، سيرمقك بنظرات مريبة، ويحاول الضّغط عليك، أو يقوم بتهديدك/ فإن أصررت، تجد معاملتهم جميعًا اختلفت، وقد تشعر أنّهم سيهاجمونك ويضربونك، في الماضي نعم كانوا يفعلون ذلك، حيث يضربون الواحد وينكّلون به، ولكن بعد سنّ قوانين منع التّعذيب توقّف الأمر، واقتصر على التّهديد والجفاء، مع ذلك ضع كلّ شيء في الاحتمال والممكن، خاصّة الأخوة من غير فلسطينيّي الدّاخل.

قد ينتابك شعور أن لا مفرّ لك من الحديث وعرض قضيّتك، فهكذا هي التّرتيبات، وهذا غير صحيح، القليل من الحزم وتتخلّص منه بإذن الله تعالى.

المهم اعلم أنّه كذّاب، ولا يوجد تواصل ولا يعرفون شيئًا إنّما هم عصافير يحاولون استدراجك للحديث، وأيّ شيء تقوله عندهم لا يُنقل للمُحقّقين، بل يُسمع ويُشاهد مباشرة.

(٢٢) خدعة ثمن حاجيّات السّجن

قد يُخبرك أحدهم أنّ ما تأكله في السّجن من بطّيخ وعنب وفاكهة، ومن غداء جماعيّ مرتّب لذيذ يقوم على ميزانيّة مشتركة بين الأسرى، ثمّ يشير عليك بأنّه من الواجب عليك أن تدفع لقاء الطّعام والشّراب، وتُشارك في الميزانيّة، وعندما تُخبره أنّك لا تملك مالًا، ولم تلتقِ بمحاميك

ولا أهلك ولا أحدٍ، يقول لك لا بأس سنعطيك الهاتف لتطلب من أهلك أن يحوّلوا نقودًا لرقم حساب ما.

احذر أن تفعل ذلك فهي خُدعة خبيثة نجسة، تُوْقِعك وأهلك في مشاكل دعم منظّمات إرهابيّة، لا تلتفت إلى هذا الكذّاب، لا أحد يدفع ثمن طعامه وشرابه، ولن يقدر أحد على منعك من الطّعام والشّراب.

(٢٣) خدعة الأسير المحكوم بالمؤبّد

قد يأتي أثناء تواجدك في سجن العصافير، أسير قديم له عشر أو عشرون سنة، ومحكوم بمؤبّدات، هذا يتنقّل بين الأجنحة بترتيب مع إدارة السّجن، يلتقي بنزلاء الجناح ليعطيهم إرشادات وتوجيهات، وربّما يخطب الجُمعة فيهم، وأحيانًا قد يحمل اسمًا لأحد المعتقلين المعروفين، فيُشعرونك أنّ له دوره، وكلمته وهيبته في السّجن، وهو أيضًا عصفور فلا تندمج كثيرًا مع مسرحيّتهم، واحفظ أن تكون حذرًا ولا تستجب إليهم فيما يخصّ قضيّتك.

(٢٤) العصفور الدّرويش (الأهبل)

أحيانًا تهيِّئ نفسيَّتك لمقابلة عصفور حذق فطن، ذي شخصيّة قويّة ماكرة، ولكن على العكس قد تُفاجأ بعصفور غبيّ أهبل، يُمكنك أن تتندّر عليه، وتتسلّى على سذاجة عقله، هم يضعون لك مثل هذه النّماذج لاستبعادك أن يكون مثل هذه المستويات عصافير في السّجن وتتنازل مرّة أخرى عن محترزاتك الأمنيّة.

في الخلاصة يحاولون دائمًا مخالفة توقّعاتك.. ونفسيّتك المنعزلة عن العالم، المضغوطة بثقل التّهم، وذكريات الأهل والأحباب، تبحث عن أيّ متنفّس أو احتمال ضئيل لتبني عليه آمالها، فاثبت واعلم أنّهم في هذا العمل –أي المخادعة– والمكر منذ سنوات عديدة، وقد مرّ عليهم مثلك ومثل حالاتك وتفكيرك وظنونك خلق كثير، فلا تهبط ولو شيئًا قليلاً في مستويات الحذر والحيطة والحرص.

(٢٥) المحامي العصفور أو المغفّل

في فترة الاعتقال الأولى خاصّة في الأيّام العشرة الأولى غالبًا لا يُسمح لك بمقابلة محامٍ، وعندما تلتقي بالمحامي فإنّ هذا بالنّسبة لك متنفّس عظيم، تريد أن تسأله، وأن يوجّهك، وأن يخبرك ماذا تفعل؟ وماذا تقول؟ وتهمّ أن تشير إليه ببعض الأمور لذلك.

المحامي في ذاك الظّرف يكون بتصوّر الأسير كالأب البار، والأمّ النّاصحة الأمينة، وهذا منزلق خطير، دعك من المحامي، وكلامه، وخبرته، أنت صاحب القضيّة فقط، والمحامي مهما كان خبيرًا لا يعلم شيئًا عن تفاصيل قضيّتك ولا سيرورة التّحقيقات معك، ولا ما فعلت وما لم تفعل، في هذه المرحلة لن يفيدك المحامي أيّ شيء، فكلّ ملّفك سرّيّ حتّى عنه، لا تتعجّب أنّه لا يعرف تهمتك، بل قد لا تعرف أنت تهمتك، ولماذا اعتقلت.

جلستك مع المحامي فرصة جديدة لهم، ليتنصّتوا عليها، ويسمعوا تفاصيلها، فلا تخبره شيئًا، ولا تسأله عن شيءٍ، وتعامل معه كما تتعامل مع المُحقّق، حتّى تنتهي فترة الاعتقال فيُفرج عنك، أو تنزل عليك لائحة الاتّهام، وتتأكّد من نزولها في المحكمة لا من كلام المُحقّقين ولا العصافير، فكلّهم لا يتورّعون في الكذب الصّريح.

بعد لائحة الاتّهام قد تتضّح الأمور، وقد تتّخذ قرارات حاسمة مغايرة كالاعتراف، ولكن ليس في هذه الفترة قطعًا، ليس في مرحلة الاعتقال والتّحقيقات والعصافير.

وهنا أوجّه نصحي للمحامين، لا تسألوا الأسير عن قضيّته، بل لا تسمحوا له بالحديث، ابدؤوا الحديث أنتم معه بأنّ الغرفة مرصودة، ومصوّرة من كلّ الزّوايا، قولوا له لا أعلم قصّتك ولا أريد أن أعلم قضيّتك، وسواء فعلت أم لم تفعل لا تعترف، لا تتحدّث بشيء، اصمت وحافظ على سكوتك أستطيع أن أعمل أنا وأترافع عنك، أمّا إن تحدّثت فلا عمل لديّ، دندنوا على هذا المنوال ثمّ بلّغوه سلام الأهل والأحباب واعتزلوه، واخرجوا باستعجال قبل أن يبدأ الحديث ويفضفض إليكم، ولا تُكثروا من الزّيارة فمضارّها أو مخاوفها أكثر من نفعها.

قد يسألك محاميك في المحكمة بهمس خفيّ هل فعلت شيئًا ؟ هذا سؤال ساذج، ليست من

مهامّـه، وليس لـه حاجـة أن يعـرف أنّـك فعلـت أم لم تفعـل، ولا شـأن لـه بذلـك، عملـه أن يقـف ويرافـع عنـك بحسـب المعطيـات الّـتي بـين يديـه، ولا شـأن لـه بهكـذا أمـور، ولـو قـال لـك اعـترف في فـترة الاعتقـال، أو أنّ أصحابـك اعترفـوا عليـك وليـس لـك سـبيل فهـو عميـل أو غـبيّ.

لا تعجـب قـد يكـون المحامـي عميـلاً رغـم شـهرته بـين النّـاس، أعـرف شـخصيًّا محامـين ممّـن ذاع سيطهم بحـلّ القضايـا الكبـيرة، وهـم عمـلاء يعقـدون الصّفقـات مـع الشّـرطة والمخابـرات في إيقـاع نـاس وإنقـاذ نـاس، يتقاسـمون مبالـغ هائلـة وهـم خـون وعمـلاء، والأهالـي عندمـا يقـع ابنهـم مسـتعدّون أن يذهبـوا لمثـل هـؤلاء، ويقدّمـوا لهـم كلّ مـا يملكـون.

أحـد المحامـين يسـأل الموقـوف عـبر الزّجـاج وسمّاعـة الهاتـف: «هـل فعلـت شـيئًا ؟» فيقـول لـه: «لا»، فيسـأله: «كيـف فعلـت ذلـك أريـد أن أعـرف مـن أجـل القضيّـة ؟» محـامٍ كهـذا هـو عصفـور بـل صرصـور نجـس كلـب خبيـث، لا تلتفـت إليـه ولا تسـمع لـه، ولا تأمنـه، إنّمـا جـاء ليوقـع بـك. قـد يخـبرك العصافـير أنّ مـن حـقّ كلّ أسـير أن يقابـل مندوبًـا عـن الصّليـب الأحمـر، وفي الحقيقـة لا تقابـل إلّا عصفـورًا ليوقـع بـك، كـن انـت مالـك نفسـك، فطنًـا ذكيًّـا واجعـل الصّمـت في هـذه المرحلـة دينًـا لا تخـرج عنـه، ولا تـوكل قضيّتـك لأيّ شـخص كان.

(٢٦)

سـيحاولون إيهامـك بنـزول لائحـة الاتّهـام بوسـائل عـدّة، وربّمـا يمـرّر إليـك وثائـق موقّعـة، أو طُـرق أخـرى لا أعلمهـا أنـا، لائحـة الاتّهـام تعرفهـا بطريقـة واحـدة وهـي في المحكمـة، وبشـكل رسمـيّ، يحضرهـا جمهـور أو بعـض جمهـور، ويحضرهـا المحامـي، وتتـمّ المرافعـة أمامـك، وتُعـرض تهمـك بشـكل واضـح وصريـح، كلّ مـا غـير ذلـك لا تعـترف بـه، ولـو جـاؤوك بألـف وثيقـة وتأكيـد وتوقيـع، فـلا ورع عندهـم بالكـذب.

(٢٧) تضييق بعد راحة ونعيم

قلنا في سجن العصافير تتنعّم بالمأكل والمشرب والمسكن، ويكون عندك فسحة لترى الشّمس والنّور والهواء الطّلق، وتُمارس الرّياضة، وتقرأ الكُتب وتنام على السّرير، وتُحادث آخرين، في كلّ هذه الفترة يكون لديك شعور بانقضاء فترة الزّنزانة وضيقها، والتّحقيقات وشدّتها، وتتنعّم بهذه الرّاحة.

فإذا بهم فجأة، يُخرجونك من السّجن، ويعيدونك للزّنزانة من جديد بظروفها البائسة، وقد ترجع لجولات من التّحقيقات من جديد، هنا يُصاب الموقوف إن لم يتسلّح بالصّبر والإيمان بانهيار نفسيّ بكلّ ما تعنيه الكلمة، ويبتئس، وتبادره أفكار ووساوس أن يعترف، ويقرّ ويُخرج كلّ ما لديه، لكي يتخلّص من هذا «القرف» !

إن كنت قرأت هذه الكلمات، فستساعدك كثيرًا بالاستعداد النّفسيّ قبل الرّجوع لنفس الحالة، وتكون مرحلة العصافير حينها كالتّزوّد للمرحلة المُقبلة، فاحفظ وتذكّر، أنّك قد ترجع لنفس الظّروف أو أشدّ، تسلّح بالإيمان والصّبر والثّبات، واعلم أنّ صبر أيّام خير لك من ندم السّنين، لا تدع الشّيطان يغلبك ويأسر تفكيرك، كن صابرًا تخرج وترتاح بإذن الله، استعن بالله ولا تعجز، وحدّث نفسك بقصص الصّابرين، ومن يسجن في أنظمة الاستبداد والقهر ويرون ألوان العذاب والتّنكيل.

حدّث نفسك بما لاقاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والنّبيّين، تذكّر حديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (أكثر النّاس بلاء الأمثل ثمّ الأمثل) تذكّر بشريات ملك الملوك سبحانه، ذو العزّة والجبروت يقول لك (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) لتكن حربك على وساوس الشّيطان كحربك في مواجهة المحقّقين والعصافير.

(٢٨) التّحقيقات وخدعها

نبدأ الآن الحديث عن التّحقيقات وخدعها بإذن الله تعالى..

بداية اعلم أنّ طريقة سيرورة التّحقيق متعلّق بشكل كبير بشخصيّتك وردّات فعلك، فالمُحقّق موظّف أوّل مهمّة عنده هو أن يدفعك للحديث ثمّ للحديث، لا يهمّ إن كان الحديث بموضوع الاعتقال أو عن الكنافة النّابلسيّة، المهم أن تتحدّث ولا تتوقّف عن الحديث، وهو يراقب نظراتك وحركاتك وردّات فعلك وبناء عليها يغيّر طريقة التّحقيق، ومن الحديث العام يستدرجك رويدًا رويدًا للموضوعات الخاصّة، لا في قضيّة خاصّة فحسب، بل يستكشف طبيعة نفسك، ويحاول تحسّس مخفيّات صدرك.

إن كنت صاحب مزاج متردّد ومرتبك وخائف، فإنّه سيميل إلى طريقة الصّراخ والتّهديد والوعيد، والنّبرة العالية وربّما يُصاحبها شتم وقذف، خاصّة إن وجد في هذه الطّريقة نفعًا وتجاوبًا منك، وإن كنت صاحب مزاج عصبيّ وعنيد وتميل إلى المواجهة، يميل إلى الطّريقة الهادئة والحوار والتّلطّف معك، حتّى لا تنقطع شعرة الحديث بينكما.

قد يبدأ معك بالصّراخ ثمّ يقرأ في عينيك نظرات التّحدّي والغضب، وقبل أن تتّخذ القرار بأن تمتنع من الحديث يتحوّل مباشرة إلى الكلام من طرف واحد دون توجيه أيّ سؤال لك، حتّى لا يُعطيك فرصة أن تقول: «لا أريد الإجابة» وتستمرّ بهذا النّهج، لذا يبقى يتحدّث، ثمّ يظهر لك أنّ غضبه كان عرضيّ ولأجلك، ثمّ يهدأ، ثمّ يفكّ قيدك، ويحضر لك كأس ماء، ويسألك عن أمور حياتك، ويُبدي اهتمامه بك، يستمرّ على هذا المنوال حتّى يجعلك تضحك ويقرأ في عينيك أنّك هدأت، فيرجع للتّحقيق بالأسلوب النّاعم.

المهم عنده أنْ لا تتوقّف عن الحديث، ليس هو في مقام تحدّي، بل هو في مقام دفعك للحديث طوال الوقت، يقول أحدهم: «كُنت قد عقدت العزم أن أستغلّ أيّ فرصة من شتم أو شدّ معي لأتذرّع بها وأمتنع عن الكلام مُطلقًا، لأفرّ من احتمال السّؤال عن قضايا معيّنة، فمرّت كلّ

مرحلة التّحقيق ولم أستطع أن أظفر بفرصة كهذه، وكلّما قلت اقتربت وهممت بها، إذا بها تبتعد بشكل غريب»

لذا لا تستغرب أنّ نفس المحقّق يكون قاذعًا شتّامًا كثير الصّراخ مع شخص، وهادئ ليّن ناعم مع آخر، فهو انعكاس لشخصيّة الموقوف أمامه.

أحدهم كان يعلم هذه التّرتيبات عندهم لذا كلّما شعر أنّهم بدؤوا يضغطون عليه في مسألة ما، يعمل على رسم ملامح الضّغط والغضب على وجهه، ويبدأ بشدّ أصابعه وتعديل جلسته ليوحي إليهم أنّه غاضب، ويتهيّأ لموقف حاسم، وهو في الحقيقة يمثّل عليهم كما يمثّلون، وبلحظة ما شاهد أحد المحقّقين يقول لصاحبه بصوت منخفض: «انظر إلى وجهه، انظر إلى وجهه» فعلم أنّ خطّته نجحت وفعلاً ذهبوا يخفّفون من وتيرة الضّغط في التّحقيق.

لذا احفظ أنّ تنازلك معهم لا يولّد رضاهم ولا يجعلهم يخفّفون من الضّغط بل على العكس، كلّما تنازلت بسبب الضّغط، وأعطيتهم شيئًا، علموا أنّ هذه هي الوسيلة النّاجعة معك فيزيدون منها، أرهم منك صلابة لا تنكسر، وحاول أن تضبط حركاتك ونظراتك.

معروف في علم النّفس أنّ هناك لغة للحركات، مثلاً عندما تسأل ابنك عن نتيجة امتحاناته، فإذا به يحكّ رأسه من جهة أذنه، تعلم مباشرة وقبل أن يبدأ الحديث أنّ سيكذب، هذه حركة لا شعوريّة ، كذلك نظرة التّأمّل والتّفكّر الّتي تكون بإمالة الرّأس والنّظر بزاوية لليمين أو الشّمال لها إيحاءاتها، حاول أن تضبط هذه الحركات، أو قم بعمل حركات من هذا النّوع في غير محلّها، حتّى تخلط عليهم كلّ قراءاتهم وتحليلاتهم.

حافظ على برودة أعصابك، لا تستعجل بالإجابة، أشعرهم أنّك بطيء التّفكير والإجابة في كلّ الأسئلة، لا في الأسئلة الحرجة فقط، حتّى لا يجدوا تمييزًا بين سؤال وسؤال..

(٢٩) المُحقّق موظّف دوره أن يستمرّ بالشّكّ بك

تذكّر دائمًا أنّ المُحقّق موظّف دوره تفريغ كلّ ما يستطيع تفريغه منك، لا تُحاول استرضاءه، فلن يرضى عنك، لا تُحاول إرهاق نفسك بإقناعه، لأنّه لا يتعامل معك كإنسان، هو يتعامل معك كموظّف، دوره أن يشكّ بك ثمّ يزيد من شكّه، لتزداد أنت محاولة في إقناعه.

دعك منه سواءً وصفك بالكذب، وتوعّدك بالسّجن أو الملاحقة، لا تُحاول كشف أوراقك ليقتنع بك، مهمّته أن لا يقتنع ولو كان كلامك مقنع، فلو كشفت شيئًا لتُقنعه، سيعلم هو أنّ الشّكّ والضّغط وسيلة ناجعة معك، فكلّما ازددت كشفًا لما عندك ليقتنع بك، سيزداد هو شكًّا بك، وسيبقى يُشعرك أنّه لا يثق بك حتّى تستمرّ في كشف المستور.

تعامل معه وفق آليّة واحددة مُحدّدة، تعامل معه كأنّك أمام المحكمة مباشرة، كلّ كلمة تقولها قلّبها في رأسك جيّدًا، هل هذه الكلمة تدينك في المحكمة أم لا، تعامل وفق هذه المنهجيّة فقط، سواء اقتنع أم لم يقتنع، أعجبه كلامك أم لم يُعجبه، وقف على أذنيه من الغضب أم لم يقف.

لا تتورّع عن الكذب الصّريح إن كان يساعدك، أقول الكذب الصّريح الّذي لا يصدّقه أيّ مخلوق؛ فلو كشف لك صورة أخذها من حاسوبك أو هاتفك، وأنت تحمل شيئًا من الممنوعات، لا تتورّع أن تقول هذا ليس ممنوعًا إنّما لُعبة، بل لا تتورّع أن تقول هذا الّذي بالصّورة ليس أنا ! أو هذه صورة مركّبة، هكذا بكلّ عناد وتعجرف، قل له: هذا ليس أنا، بل قل له: لا أرى شخصًا في الصّورة، لا يهمّ، المهم أن لا تعترف، إن اعترفت سقطت، وإن امتنعت يبقى لك الأمل.

وتذكّر جيّدًا فهذه مزلّة يقع بها الكثيرون، لا تُقنعه، ولا تسترضيه، معيارك دائمًا في كلّ مكان هل كلامك يمكن تخييط ملفّ منه أم لا ؟ هل كلامك يدينك في المحكمة أم لا ؟ ثمّ هو يستطيع أن ينفجر فلا تلتفت إليه.

وتخييط الملفّ أحيانًا يحتاج عدّة خطوات، فلإدانتك بالالتقاء بشخص يعمل ضدّ أمن الدّولة، عليه أن يُثبت أنّك التقيته، وأنّك كنت تعرفه عندما التقيته، وأنّك تعرف أنّه خطر على أمنهم..

هـذه مراحـل عـدّة اقطعهـا كلّهـا، ولا حاجـة للإقـرار بأنّـك التقيتـه ولكـن لا تعـرف خطورتـه، أو التقيتـه وتعـرف خطورتـه ولكنّـك لم تقصـد كـذا، فالقانـون لا يحمـي المغفّلـين، ولـن يغفـر لـك ذلـك، تعامـل بالطّريقـة الأبعـد عـن تخييـط الملـفّ، والّـذي يزيـد عسـرًا عليهـم، وليقـل عنـك بعـد ذلـك كاذب، ولتنتفـخ أوداجـه، وليمـزّق ملابسـه، وليصـرخ قـدر مـا يشـاء، فـكلّ هـذا هبـاء هـراء !

(٣٠) طريقة التّهويل

في العادة عندما يبدأ التّحقيق، ينطلق المُحقّق من معلومات سطحيّة عنك.. اسمك ؟ اسم والدك؟ إخوتك؟ عملك؟ سيّارتك؟ ومعلومات أخرى عاديّة..

وبين طيّات هذه المعلومات يُرسل إليك رسائلَ خفيّةً، بعبارات قليلة غامضة، يسترسل ذهنك بها بشكل تضخيميّ فوق حجمها، يقول لك مثلاً: «ما أخبار فلان؟» أو «إذن جارك فلان؟ كيف حاله اليوم؟» أو يفتح لك الخارطة ويحدّد لك بيتك، أو يطلب منك تحديدها.

هو عمليًّا يعلم حالة الإغراق النّفسي التّي تعيشها، ويعلم أنّ خيالك يأخذ أبعادًا بكلّ جهة، إذ تسمع معلومة سطحيّة ثمّ تتخيّل أنّه يعرف كلّ شيء، كلّ صغيرة وكبيرة، فتُصاب بالإحباط، ويتولّد عندك شعور أوّليّ بأن لا فائدة من الإنكار، فلو أنكرتُ سيكشفونني.

يا أخي ليكشفوك، وليواجهوك بالكذب الصّريح، أين المشكلة؟ عندما يحدث أمر كهذا ابتسم ابتسامة ساخرة، بكلّ برودة أعصاب، وأصرّ على روايتك، أو أنكر كلّ شيء.

أحدهم أنكر أنّه يعرف ابنه، أتريد أكثر من هذا ؟!

أحدهم زعم أنّه لا يعرف من الأصدقاء أحدًا؟

وآخر أنكر أنّه يملك سيّارة رغم أنّها مسجّلة في الدّائرة عندهم!

هذه صور من الإنكار المبالغ، لا يلزم أن تتّخذ منهجيّة كهذه، ولكن إن اضطّررت افعل، وماذا ستخسر من وراءها، هم كذّابون دجاجلة، فلا عيب ولا ضير ولا حرام أن تكذب عليهم بالمثل.

ولا تسمح لخيالك أن يطير مع منهج التّهويل زيادة عن اللّزوم، نعم ربّما يعرفون أشياء بتفاصيلها، لكن باللّه عليك لا تتخيّل أنّهم يراقبونك بالأقمار الصّناعيّة وداخل بيتك ليل نهار، دعك من الأوهام البعيدة وتذكّر مرّة أخرى ليس مهمّتك أن تقنعهم، ولا أن يرضوا عنك، مهمّتك فقط أن لا تعطيهم بلسانك ما يدينك أو يبنوا بها ملفًّا عليك.

(٣١) طريقة التّهوين

بالمُقابل عندهم أسلوب التّهوين، خاصّة لمن علموا منه عنادًا، وخشونة جانب، أو أنّه مُقبل بمعنويّات عالية إلى خطّ ومنهج لا يرتضونه، يُشعرونك أنّهم لا يعلمون عنك شيئًا، بعبارة أخرى (يستهبلون أمامك قدر الإمكان)، لتخرج وتقول: «ما أهبلهم»، لا يعلمون عنّي أبسط المعلومات، اسمح لي أخي العزيز أن أقول لك إنّك أنت الأهبل! هم يستخدمون هذه الطّريقة لأمرين:

الأوّل: أنّ عندهم منهجيّة شديدة في التّكتّم على قدراتهم، فلو وضعت رقمًا سرّيًّا لهاتفك أو حاسوبك، يطلبون منك الرّقم لفتحه، ثمّ يسألونك عن محتوياته، فإن رفضت تمريره، لا يسألونك عن فحواه، تكتّمًا على قدراتهم، ولإيهامك أنّهم لم يقدروا أن يصلوا للمعلومات بداخله، رغم أنّ فكّ الرّقم، واستخراج ملفّات الجهاز يستطيعها أيّ طفل في عالم الحاسوب والالكترونيّات، ومسألة سهلة ليست بالعسيرة، ولكن من هذه الحركات تستهبلهم وتأخذ راحتك بعد ذلك، وتتنازل عن حرصك الأمنيّ.

قد تكون عندهم معلومات دقيقة، ومراقبة وتنصّت دقيق، ولكن لا يكشفونه لك، وتبقى هذه ضمن المعلومات السّرّيّة، الّتي لا توضع حتّى في حاسوب المحكمة، ما يهمّك أنت ما يُعرض أمام المحكمة وتُحاكم عليه، مع أخذ أعلى وسائل الحيطة والحذر خارجها.

الثّاني: إشعارك بالأمان والطّمأنينة حتّى يتولّد عندك شعور بأنّهم لا يعرفون عنك شيئًا، ولا يُحسنون متابعتك، فتتمادى في عدم أخذ الحيطة والحذر، وتزيد من الطّيشان والتّصرّفات غير المدروسة، ثمّ تفاجأ بقبضة على غفلة.

لذا لا تستغرب أنّ أصحاب النّفوس المتردّدة أو التّحرّكات الخفيفة تكثر ملاحقتهم والتّحقيق معهم، وأصحاب النّفوس العنيدة يُتركون كلّيًّا لا تحقيق ولا سؤال ولا متابعة في الظّاهر، في الحقيقة تكون متابعة الصّنف الثّاني أكبر وأشدّ وأدقّ ولكن بشكل خفيّ لا يشعر بها، ليأخذ راحته، ويُؤخذ على حين غرّة.

فكن مسلمًا فطنًا ذكيًّا، لا تنخدع بتهويلهم ولا بتهوينهم واعلم أنّك تتعامل مع مكر شديد، وخبث مريب..

(٣٢)

هناك عدّة طُرق يتّبعها المُحقّقون، في العادة يجرّبونها كلّها ثمّ يستمرّون في أنجعها وأفضلها، سواء كانت بالشّدّ والحزم، أم باللّين والمسايسة.

ولا تنسَ قضيّة الإغراق النّفسي، وتضخيم التّهم، وإشعارك باليأس التّام، والحديث معك من هذه المنطلقات يولّد لديك شعورًا لا تحسن به اتّخاذ القرارات، يدور في ذهنك الكثير من الأسئلة كيف أتعامل معهم؟ ماذا أقول لو سألوني عن كذا؟ أيّ طريقة أنفع؟؟ .. إلخ، مهمّتك الآن أن لا تدين نفسك بلسانك، مهما كانت التّهم كبيرة، مهما كانت التّهمة موثّقة وعليها دلائل، عندك وظيفة واحدة في هذه المرحلة، هي الصّمت وعدم إعطاء أيّ معلومة تزيد في إدانتك.

إن لزم الكذب اكذب ولا تتورّع ورعًا باردًا سخيفًا، وإن لزم الصّمت وعدم الإجابة قل له: «لا أريد الإجابة»، وقل له: «لا شأن لك»، لا تقلق، وقارن بين صبر بضعة أسابيع، وبين إدانة سنوات..

(٣٣) الإلحاح على نفس السّؤال

من طرقهم الإلحاح على نفس السّؤال، كلّما غاب عنه قليلاً عاد لنفس السّؤال، أو يأتي محقّق آخر بنفس السّؤال، حتّى تظنّ أنّهم لن يتركوك حتّى تجيبهم، وأنّك إن أجبتهم فستتخلّص من همٍّ كبير، والحاصل العكس تمامًا، كلّما أجبت عن شيء فتحت لهم طاقة لإثارة عدّة أسئلة أخرى حول نفس القضيّة.

مثلاً، أحدهم سئل عن علاقته بفلان، قال: «لا أريد الإجابة» أو قال: «لا أعرفه» وكلّما واجهوه بالأدلّة والإثباتات يرفض الإجابة، وكلّما انتقلوا لقضيّة أخرى، رجعوا لنفس السّؤال بشكل متكرّر، حتّى يلين وتقول معرفتي به سطحيّة، أو رأيته مرّة، أو أسمع عنه لا أكثر.. في الواقع هذا تنازل لا يزيل الضّغط عنك بل تبدأ أسئلة جديدة حول نفس النّقطة: ما علاقتك به؟ ماذا يعمل؟ أين التقيته؟ بماذا تحدّثتم؟ وعدّ أسئلة كهذه لا تنتهي.

وكلّما كانت أجوبتك أقلّ، والتزمت الصّمت أكثر كلّما ضيّقت عليهم المسائل ونقاط البحث، سواء أجبتهم أم لم تجبهم سيستمرّون بالسّؤال والضّغط، إن أجبتهم على مسألة ينتقلون للّتي تليها، فبما أنّك ستواجههم بكلّ حين، واجهّم في المبدأ خير لك من الإعياء الذّهني، والتّعب النّفسي، وهموم هل أجبت بطريقة صحيحة أم لا.

إن كانت عندك قدرة أن تقول من البداية لا أريد أن أتحدّث بأيّ شيء فخيرًا تفعل، وإن لم تملك نفسيّة قويّة كهذه، فعليك باللّف والدّوران، والكذب فإنّ الكذب جائز مباح هنا، بل قد يجب عليك.

(٣٤) الإعياء الذّهني

من طُرقهم أن يبدأ الحديث معك مُحقّق أو عدّة محقّقين، في حين أنّك تنتظر أن يبدؤوا بتوجيه تهمة إليك، أو التّحقيق في أمر ما، تجدهم يتحدّثون بأمور عامّة، حديث عامّ في أمور الدّين أو أمور الحياة، لا علاقة له بأيّ قضيّة، ولا تدري ما تهمتك، وتستمرّ هذه الحالة من الحديث العامّ ٨ ساعات متواصلة، حتّى تنتهي دوريّتهم وتغيب الشّمس، يذهبون ويأتي شخص آخر بنفس الطّريقة، حتّى تُعيى ذهنيًّا وتشتّت وتفقد تركيزك، ثمّ يبدأ جسدك بالاحتياج للنّوم، وتغفو عين وتصح عين، فيمنعونك من النّوم.

أغلب من اطّلعت على أحوالهم تحدّثوا عن ٢١ ساعة من التّحقيق المتواصل باليوم، والثلاثُ ساعات المتبقيّة تشمل الطّعام والصّلاة واستخدام الحمّام، وإزعاج السّجّان أو العصفور، وقيل قد تشمل التّحقيقات يوم ونصف أو يومان.

بكلّ الأحوال لا تستطيع ضمان فترة مُحدّد ولكن من المهم أن تعرف مثل هذه التّفاصيل حتّى يكون عندك الاستعداد النّفسيّ للأطول، ولا يقتلك التّململ من أوّل ساعات، طبعًا ساعات التّحقيق تشمل فترة راحة قصيرة للطّعام أو للصّلاة، ولكن من المؤكّد لا نوم فيها، وتستمرّ هذه الحالة حتّى تنضج، يبدأ حينها التّحقيق ولا تركيز لك، وذهنك غاية في التّشتّت.

أفضل أسلوب تتّخذه في مثل هذه الحالة أن لا تجيب على شيء، ولا حتّى عن الأمور العامّة، هذه الطّريقة تقتلهم، لأنّ المُحقّق موظّف عليه أن يقضي ساعات العمل بالحديث معك، فإن سكتَّ تركته من غير عمل، وهو الّذي سيقتله الملل، عادة يستمرّون بهذه الحالة ثلاثة أيّام ثمّ تبدأ ساعات التّحقيق بالتّناقص، مع ذلك هيّئ نفسك للأعسر، حتّى يكون واقعك أسهل عليك وأيسر.

أمّا الحديث في الأمور العامّة قد يُستغلّ ضدّك، شخصيًّا كنت أدخل معهم في نقاشات عقديّة أثبت فيها بُطلان دينهم الحاليّ، وأفترّ من عزائمهم، وأبيّن كيف أنّ دولتهم إلى زوال بالأدلّة

الواقعيّـة الملموسـة، ولكـن أثنـاء حديثـي معهـم كنـت ألاحـظ كـم كانـوا يفرحـون عندمـا يظفـرون ببعـض العبـارات والإطلاقـات، ثـمّ يقفـز أحدهـم إلى الحاسـوب لتدوينهـا علـى عجالـة، وفعـلاً اسـتغلّت لاحقًـا في قضايـا أخـرى وفي منعـي مـن التّدريـس والسّـفر.

مـن جهـتي هـذه النّتيجـة كنـت أتوقعهـا وغـير نـادم عليهـا، فمـا قلتـه هنـاك أقولـه اليـوم هنـا، ولكـن لتكـن هـذه الأمـور في حسـبانك، ولـك أن تأخـذ بالرّخصـة، ولسـت في صـدد إقناعهـم، وليسـت هـذه مهمّتـك في هـذه الظّـروف، المهـم أن تأخـذ بأسـباب الخـروج سـالمًا بأقـلّ الأضـرار الممكنـة، فـلا أفضـل مـن الصّمـت.

(٣٥) طريقة توجيه الأسئلة من طرفين في نفس الوقت

من أساليبهم لإفقادك تركيزك، وعدم إعطاءك الفرصة للتّفكير، أن يدخل عليك شخصان أو أكثر بشكل فجائيّ مباغت، أحدهم يركل الباب، ويبدأ بالصّراخ والسّبّ والشّتم، والآخر يجلس جنبك ويحاورك دون سبّ ولكن بعجلة وشدّة، الاثنان أو أكثر يسألونك بنفس الوقت، كلّ يسأل عن أمر، وعليك أن تجيب الأوّل ثمّ تقفز لتجيب الثّاني، وإن تأخّرت قليلاً يبدأ كلّ بالصّراخ، وادّعاء أنّه أولى بأن تجيبه وتنظر إليه.

إن بدأت تأخذ وتردّ، وتجيبهم سترتبك وتختلط عليك الأمور، حافظ على برودة أعصابك، ورباطة جأشك، وتذكّر أنّهم يمثّلون دور الغاضب، وأنّ نفس المشهد يكرّرونه مع العديد من الأشخاص، وأنّهم إن شعروا من هذا الأسلوب فائدة فسيستمرّون به، وإن لم يجدوا منه نفعًا سيتركونه وينتقلون لغيره.

لذا حافظ على برودة أعصابك، لا تُجب أحدًا منهم، أو تفاعل مع أحدهم بكلّ برودة، يسألك هو السّؤال، انظر وفكّر وتلفّت ثمّ أجب بكلمة مختصرة من غير تطويل، ولا تتفاعل مع مشهد الصّراخ والنّباح، إن ثبتَّ هكذا لن يطول هذا المشهد، وإن ارتبكت فسيطول.

احفظ قواعدهم أنّهم يريدون منك أن تستمرّ بالحديث، ومتى شعروا بغير ذلك سيتوقّفون ويبدّلون المشهد، ولن يسمحوا لأنفسهم أن تصل معهم لدرجة تقول فيها وأنت غضبان لن أتحدّث بشيء، سيراوغون كثيرًا حتّى لا تصل هذه المرحلة.

أحدهم شتمه المحقّق وهو يصرخ، وكان ممّا قال المُحقّق له: «إن لم تفعل شيئًا كما تزعم كيف وَصَلْتَ لهنا لهذه المزبلة -قال كلمة أخرى أنزّه أسماع القارئين عنها-» فردّ عليه أن يتأدّب وقال من الآن لن أتحدّث بكلمة، وعقد العزم على ذلك، ولكن المُحقّق وهو يصرخ توقّف عن الشّتم، واستمرّ المُحقّق بالحديث وحده دون توجيه الأسئلة، استمرّ بالحديث عن الأوضاع وماذا يحصل للشّباب، وكيف يضيعون، ولم يوجّه إليه أيّ سؤال لنصف ساعة، ثمّ بدأت نبرته

تهدأ شيئًا فشيئًا حتّى بدأ يسترضيه، فقال: «نحن هنا نبغض عملنا، نحن نشعر أنّنا نسجن النّاس، نحن في مزبلة! أليس كذلك؟» فقال له الأسير: «نعم».

لم يعترض المُحقّق بل استمرّ وقال: طنحن في مزبلة، وأعلم ذلك، ولا نريد لكم أن تصلوا إلى هنا، نحن نخاف عليكم، وعندما نغضب نغضب من أجلكم!»، ثمّ صار يدندن على هذه النّغمة، وإذا به يقرّر أن يفكّ القيد عن يديه، ويضع له كرسيًّا مكتبيًّا، فأجلسه، وطلب له مشروبًا ساخنًا، وإذا به يحقّق معه من جديد بأسلوب هادئ جدًّا، والأسير رجع ليتفاعل معه، ونسي أنّه عزم على عدم الحديث مَطلقًا، وبهذا قدر المُحقّق على امتصاص غضبه، وامتصاص قراره أن لا يجيب عن أيّ شيء.

ليست وظيفة المُحقّق أن يُصارعك وينتقم لنفسه منك، وظيفته كما قلنا سابقًا أن تتحدّث ثمّ تستمرّ بالحديث، ومتى امتنعت عن الحديث فشل في عمله، لذا كان هذا المُحقّق بارعًا عبقريًّا، نجح في لعب الأدوار ببراعة، واستطاع تغيير شخصيّته بشكل سريع، ولم يُعط فرصة للأسير أن يستمرّ في ترك الحديث.

طبعًا هذا الأسير يبحث عن مبرّر لصمته، ولا حاجة لذلك، يمكنك الصّمت هكذا (عباطة)، لا تريد الحديث من غير سبب منهم، لمجرّد أنّه حقّك وتريد استخدامه، وتخشى من تبعات الأسئلة، فاصمت من غير مبرّرات من تصرّفاتهم، ثمّ اعلم أنّ أسلوب اللّين الّذي اتّبعه المُحقّق بعد هذا المشهد كان أخطر من أسلوب الضّغط بكثير كما سنأتي عليه إن شاء الله.

(٣٦) من أخطر لحظات التّحقيق

أخطر لحظات التّحقيق -بظنّي- هي تلك الّتي في أواخر مراحلها وليس في أوائلها، مرحلة ما بعد العصافير، ولقاء المحامي، ومرور أكثر وسائل التّحقيق، وبعد الضّغط والشّدّ، كما مرّ في الحلقة السّابقة، يأتي المُحقّق بأفضل أسلوب وأحسنه، وبكلّ هدوء ولين، يقول لك:

«لقد تبيّن لنا صدق نواياك، وأنّك لست كما تصوّرنا، لعلّك هممت بعمل ما ثمّ تراجعت وتعقّلت، نحن نؤمن بصدقك، لذلك غدًا محكمتك ستخرج وتعود لأهلك سالمًا، ولكن حتّى نطمئنّ لذلك، ولا يضيء لنا ضوء أحمرّ أنّك ستخرج بنفس العقليّة والنّوايا والتّفكير، قل لنا أنّك نويت وتراجعت، لا نريد أكثر، وأعدك أنّك ستخرج، هذه كلمة رجال، واعتبرها عهد منّي ووعد» ويدندن على هذا المنوال.

الأسير بدأ بجبل من التّهم، والادّعاءات العظيمة، وكان يظنّ أنّه هالك، وإذا بهم يتركون كلّ التّهم وتبقى تهمة واحدة أخيرة، في الحقيقة هي المقصودة من الأساس وكلّ التّهم الأخرى معلّبة هرائيّة لا أكثر.

الأسير ينتقل من نفسيّة حملت الأثقال العظيمة إلى نفسيّة فيها الأمل والسّرور، ويظنّ أنّه لم يتبقّ له سوى عقبة صغيرة، رغم تجربته مع المحقّقين وخبرة الأسير بهم في هذه المرحلة، ومعرفته أنّهم كذّابون دجاجلة، ينتابه شعور داخليّ، هناك شيء يقول له: « لا نريد أن ترجع من جديد، لقد قطعتُ شوطًا كبيرًا حتّى وثق بي، لا أريد أن يعود معي من البداية أو أن أغضبه، لعلّه يصدقني هذه المرّة، بقيت هذه العقبة الصّغيرة.. هل أقول له وأخلص ؟!! » رغم معرفته يقينًا بكذبهم، إلّا أنّ هذا النّداء لا بُدّ أن يتحرّك في نفسه بشكل غريب.

وهنا يظهر شبح أخيكم مرّة أخرى، تذكّروه جيّدًا، سترونه بخيالكم جيّدًا، سيخرج الشّبح من جديد ليقول لك: «اخرس لو أجبته لأهلك، هذا دجّال لا يتورّعون عن الدّجل وهو يبحث عن أسرك حتّى آخر لحظة»، كلّما حدّثتك نفسك بتصديقه، تذكّر أخيك يحدّثك بتكذيبه،

لأنّـه أوقـع أناسًـا كثـرًا مثلـك في آخـر لحظـة، صـبر سـاعة.. صـبر سـاعة لـو فعلوهـا لعـادوا لأهلـه، ولكـن أمّنـوا لهـم فأهلكوهـم.

سـترى دموعـه يغرغـرن بـين جفونـه وهـو يحدّثـك، ستسـمع دقّـات قلبـه وهـو يتحنّـن إليـك، سـترى بـه شـعورًا صادقًـا، ومـا ذلـك إلّا لأنـه متقـن للتّمثيـل، ولأنّـك تتعامـل (بسـلامة) نيّـة أو يسـمّيها البعـض سـذاجة.

احـذر أخـي الكريـم، ولـو رأيـت محاميـك أو أبيـك أو صديقـك يدعـوك لتصديقـه فكذّبهـم جميعًـا، ولا تفعـل، نسـأل الله أن يسـلّمنا ويسـلّمكم.

(٣٧) ليست وظيفتك أن تدعوهم للإسلام!

كثير من الأخوة يظنّون أنفسهم أذكياء وأنّه أوّل شخص يحاول استغلال جلسته معهم لدعوتهم للإسلام، ليست هذه مهمّتك هناك، وتأكّد أنّ غيرك فعل مثل ذلك كثيرًا، وصاروا هم يتفاعلون معك لاستغلالها لمآربهم، يا جماعة الخير، كثير من الشّباب حاولوا دعوتهم للإسلام ورأوا أعينهم تغرغر من الدّمع! وهم كذّابون يُمثّلون عليهم! هم يتركونك لتقوم بأمر كهذا، لاستعطاف قلبك، واستمالته، وبناء الخيوط معك، ولتستمرّ بالحديث.

أحد المُحقّقين بعدما سمع دعوة صادقة ونصيحة قلبيّة عميقة، أظهر علامات التّأثّر والانفعال، وأطلق أعين النّظر والتّأمّل، حتّى ظنّ الموقوف أنّه تمكّن منه، وانتصر على شيطانه، وبعد ذلك همّ هذا المُحقّق بالخروج لتغيير دوريّته، فإذا به يخاطب مُحقّقًا آخر: «أسمعت ما يقول فلان؟ يقول كذا وكذا!» وهو متأثّر! فيردّ عليه المُحقّق الآخر بتعنيف ولوم، ويبيّن له أنّه كلامه ليس بصحيح وعليه ملامح الغضب لردّة فعل صديقه، تذكّروا مرّة أخرى أنّكم في (هوليوود) حيث أعلى تقنيات التّمثيل والمراوغة، ولو شعر المُحقّقون أنّ أحدهم تأثّر بكلامك لوهلة للاقى حتفه قبل أن يستمرّ بالتّفكير، فأسرارهم فوق حرّيّة الرّأي والمعتقد.

سيحنّ قلبك لذلك الممثّل المتأثّر وتتمنّى معاودة مجالسته، والله أعلم بما قد يقع بعدها، والأخطاء الّتي لا تنتبه لها وأنت في غمرة الدّعوة، غافلًا عن محترزات الحيطة والحذر! دعك منهم، دعك منهم واخرج سالمًا الآن وبعدها اعمل بها داعية! هنا ليست هذه مهمّتك ولا وظيفتك! ركّز بأن لا تُدان واختصر قدر الإمكان من الكلام ثمّ لكلّ حادث حديث..

(٣٨) آلة كشف الصّدق والكذب وطريقة الاحتيال عليها

في البداية اعلم أنّ هذه الآلة ليست وثيقة يمكن أن تدينك في المحكمة، فهي ليست من الوثائق الموثوقة، مع ذلك لا تستخفّ بها، فنتائجها قويّة ولها نوع مصداقيّة، والمحقّقون –إن تمّ الفحص– يتّكئون عليها بشكل كبير، عدم إثباتها في المحكمة لا يعني أنْ لا قيمة لها، بل لها قيمة وحيّز كبير عندهم، وفي نظرتهم إليك، ولعلّها من المؤثّرات على القاضي أيضًا.

ومن جهة أخرى لا يستطيع أحد إلزامك بعمل الفحص عن طريقها، لا قانونيًّا ولا واقعيًّا، فاقتناعك بضرورة تنفيذها أمر مهمّ لنجاح الفحص، فلا يُمكن إجبارك عليه، وإلّا لم تأت بأيّ نتيجة، فهي غاية في الحساسيّة، ولا تستمع لوعود المُحقّق أنّك إن بيّنت صدقك سأخرجك حالًا.

هذا كذب، هناك أخوة أجروا الفحص، وقال المُحقّق إنّ الآلة أعطت نتيجة صدقهم، ولكن قال له المحقّق بعد ذلك: «هناك بعض الأمور سنفحصها بضعة أيّام» وبعض الأمور هذه استمرّت كلّ فترة التّحقيق الّتي تستغرق عادة ثلاثة أسابيع تقريبًا، وكذب بكلّ وعوده وقسمه، ولم يخرجه..

لا تقبل أن تقوم بعمل الاختبار خير لك وآمن، لا حاجة أن تدخل في متاهاتها، قل ببساطة لا أؤمن بها، وغير مقتنع ولن أجرّبها، هكذا هو المنهج السّليم والصّائب، ولا حاجة أن تتحذلق بمحاولة خداعها، فقد لا تفلح في ذلك، ولست في ميدان تجارب واختبارات، أنت في واقع تريد تجاوزه فقط..

وما سأعرضه عليك الآن بإذن الله، من طريقة عملها، وأسلوب خداعها، لتعرفها، فقد تضطّر، أو تمرّ بظروف تنهزم أمامهم ولا تقوى على ضغطهم فتجري هذا الفحص.. فاسمع عنها لا لتكون أوّل محاولاتك بل تخادعها عن ضرورة استخدامها..

الآلة تعمل على قياس دائم لدقّات القلب والضّغط والتّعرّق.. وذلك عن طريق وضع خاتم قماشيّ بإصبع أو إصبعين مربوط بأسلاك للجهاز مباشرة، ويوضع في يدك آلة فحص الضّغط الموجودة عن الأطبّاء، هذه الأمور بشكل عام حسّاسة ولها ارتباط وثيق مع المشاعر والأحاسيس ومتى

كـذب المـرءُ لا بُـدّ أن يظهـر ارتفـاع في دقّـات قلبـه وضّغطـه ولـو كنـا يسيـرًا جـدًّا.
يُنفّـذ الاختبـار طبيـب نفسـيّ مختـصّ، يعمـل في البدايـة علـى تهدئتـك حتّـى لا تحصـل أيّ مؤثّـرات خارجيّـة علـى مشاعرك، تتّفـق معـه مسبقًا وقبـل بـدء الاختبـار علـى الأسئلة الّـتي سيسـألك إيّاهـا، ويخـبرك بطريقـة الاختبـار بشـكل دقيـق، ويخـبرك بصيغـة السّـؤال حرفيًّـا قبـل أن تُسـأله، كلّ ذلـك حتّـى لا يجـول في خاطـرك هاجـس أنّـه قـد يفاجئـك بسـؤال مـا فيرتفـع ضغطـك ودقّـات قلبـك لأمـر خارجـيّ، ومـن أوهـام قـد تـراودك أثنـاء الاختبـار، لـذا مـن الضّـروريّ جـدًّا لنجـاح الاختبـار أن يزيـل كلّ الوسـاوس والهواجـس مـن ذهنـك تمامًـا، وأن تكـون الأسـئلة وطريقـة الاختبـار معروفـة لديـك بدقّـة فتأمـن وتسـتقرّ نفسـك.
بعـد أن تتّفـق معـه علـى الأسـئلة المفروضـة يبـدأ أوّلًا بالمقيـاس المعيـاريّ، وهـو الّـذي بحسـبه يقيـس باقـي النّتائـج، فيكتـب سـتّة أرقـام علـى لـوح أمامـك، يضـع دائـرة علـى الرّقـم ثلاثـة فقـط، ويُخـبرك قبـل بدايـة الاختبـار أنّـه سيسـألك سـتّة أسـئلة، عـن كلّ رقـم هـل عليـه دائـرة، وعليـك أن تجيـب علـى جميعهـا بـ(لا) بمـا فيهـا الرّقـم ثلاثـة الّـذي علـي دائـرة، إذن سـتكون صادقًـا في جميعهـا وتكـذب في الرّقـم ثلاثـة المحاطـة بالدّائـرة، هـي كذبـة متّفـق عليهـا سـلفًا، فالأسـئلة إذن هكـذا:
- هل على الرّقم واحد دائرة ؟، «لا»
- هل على الرّقم اثنان دائرة ؟، «لا»
- هل على الرّقم ثلاثة دائرة ؟، «لا»
- هل على الرّقم أربعة دائرة ؟، «لا»
- هل على الرّقم خمسة دائرة ؟، «لا»
- هل على الرّقم ستّة دائرة ؟، «لا»
عمليًّـا سـتصدق في جميـع الأسـئلة وسـتكذب في السّـؤال عـن الرّقـم ثلاثـة، عندمـا تكـذب عنـد الرّقـم ثلاثـة سـيظهر ذلـك في ضغطـك ودقّـات قلبـك رغـم صغـر الكذبـة، ولكـن الجهـاز عالـي الحساسـيّة،

وهـذا بالنّسـبة لهـم معيـار، إذ إن كان هنـاك ارتفـاع كـذا في الكذبـة الصّغيرة فمـن المفروض أن يكـون الارتفـاع أعظـم في الكذبـة العظيمـة.

إذن يجعلـون هـذا الارتفـاع مقياسًـا لمـا بعـده، ولا يُعقـل أن يكـون الارتفـاع عنـد هـذه الكذبـة أكـبر مـن الارتفـاع عنـد الكذبـة الحقيقيّـة، وفعـلًا يبـدأ الاختبـار، يسـألك السّـؤال الأوّل ثـمّ يصمـت ثانيتـين، ثـمّ ينتقـل للسّـؤال الثّـاني حتّـى ينهيهـا، ويظهـر لـه المقيـاس، وربّمـا يعيـد الاختبـار ليتأكّـد مـن قـرب النّتائج.

ولكـي تخـدع الآلـة مـا عليـك إلّا أن تُحافـظ علـى هدوئـك عنـد أوّل سـؤالين، ومـا أن تقـترب مـن السّـؤال الثّالـث، استحضر أسـوأ المواقـف إحراجًـا لـك، أو انفعـالًا، ابـدأ بتخيّـل موقفـك المُحـرج يـوم حصـل كـذا، أو طريقـة دخـول الشّـرطة لبيتكـم وسـحبك للاعتقـال، أو تذكّـر موقـف زوجتـك المؤثّـر أو أمّـك أو ابنتـك وهـي تبكـي.

لـن يكتشـف أحـدٌ مـا يجـول في خاطـرك، لكـن مـا سـيحصل أنّ الارتفـاع عنـد الكذبـة البسـيطة لـن يكـون ارتفاعًـا يسيرًا، بـل ارتفاعًـا هائـلًا، وهـذا يعـني لهـم أنّـك مـن أصحـاب الحـسّ المُرهـف، الّذيـن يتأثّـرون جـدًّا لأبسـط كذبـة يكذبونهـا، فكشـفك في الكذبـة الحقيقيّـة أيسـر، إذ إنّ الكذبـة الحقيقيّـة ينبغـي أن تكـون أعلـى مـن هـذا المقيـاس بكثـير، وقـد يكـون هـذا بالواقـع أمـرًا متعـذّرًا !

ومـا أن ينتهـي مـن السّـؤال عـن الرّقـم ثلاثـة حيـث ينبغـي أن تكـذب وتدّعـي أنّـه غـير محـاط بالدّائـرة، اقطـع كلّ خيالـك المؤثّـر، وعُـد مندمجًـا مـع الاختبـار لتهبـط انفعالاتـك وتسـتقرّ مـن جديـد، ليكـون الارتفـاع الضّخـم عنـد الكذبـة فقـط رغـم بساطتها، بهـذا تكـون قـد احتلـت علـى الفحـص المعيـاريّ.

بعـد ذلـك يبـدأ بالسّـؤال المتّفـق عليـه، لنقـل مثـلًا أنّكـم اتّفقتـم علـى سـؤال: «هـل فعـلًا لم تلتـقِ بفـلان طـوال حياتـك ؟»، أنـت تدّعـي «لا»، وهـو يريـد التّأكّـد مـن جوابـك، وهـذا السّـؤال يدمجـه بـين خمسـة أسـئلة معلـومٌ يقينًـا جوابهـا ، يُخـبرك أنّـه سيسـأل مثـلًا، هكـذا:

– هل يوجد في هذه الغرفة كرسيّ ؟، «نعم»

– هل المصباح مضيء ؟، «نعم»

- هل اسمك كذا؟، «نعم»

- هل فعلًا لم تلتقِ بفلان طوال حياتك ؟، «نعم»

- هل تلبس حذاءً ؟، «نعم»

يسأل هذه الأسئلة وتجيب بـ(نعم) أو (لا) فقط، وبين كلّ سؤال وسؤال يستغرق ثانيتين ثمّ ينتقل للسّؤال الّذي يليه.

بعد أن ينتهي من هذه الجولة، يعود لتكرار الأسئلة ولكن بترتيب مختلف، فيجعل سؤال القضيّة في الأوّل أو في الآخر، ويكرّر الاختبار على نفس السّؤال خمس جولات، في كلّ مرّة يراقب ردّة فعلك من حيث دقّات القلب والضّغط والتّعرّق، عند سؤال القضيّة.

إن كنت كاذبًا فسيظهر ارتفاع بالجهاز في كلّ مرّة تجيب كذبًا على سؤال القضيّة، وإن كنت صادقًا سيحصل ارتفاع بسبب تميّز السّؤال وارتيابك منه، ولكن غالبًا لن يحصل ارتفاع أعلى من المقدار المعياري الّذي بدأت به لأنّك زيّفته.

لذا إن كان ذهنك صافيًا ومنسجمًا مع الآلة من غير تزييف ستظهر نتائج لها قوّة ولها مكانتها عندهم، فماذا تفعل؟، الاختبار طويل، وأن تقلب الكذب لصدق ممكن، ولكن يحتاج لنفوس جبّارة، وليس بالأمر السّهل، بل قد يكون مستحيلًا.

ولكن غاية ما تستطيع فعله، أن تخلط عليهم النّتائج، وأن يميلوا لصدقك على كذبك دون جزم في الاثنتين، وذلك بأن تستحضر شيئًا يستثير مشاعرك عند الأسئلة العاديّة ليظهر ارتفاع ما، ثمّ إن جئت عند سّؤال القضيّة تترك التّفكير بما يثير النّفس فيظهر انخفاض عند هذا السّؤال بدل الارتفاع، أو يحصل ارتفاع مساوٍ لباقي الأسئلة.

ويُمكنك أن تقرأ القرآن فلا تركّز بالأسئلة بتاتًا، تكاد لا تسمعها، فقط تجيب وكأنّك رجلٌ آليّ، تجيب بـ «نعم» وأنت تحاول صرف ذهنك عن مضمون الأسئلة، وعن عباراتها، وتحاول أن تلعب بذاكرتك قدر ما تستطيع، بحيث لا تميّز سؤال القضيّة عن غيرها.

لـو اسـتطعت فعـل ذلـك فسـتخدع الآلـة إمّـا بتشويشـها أو بـأن تظهـر بهـا صادقًـا، لكـن المشـكلة في ذلـك أنّ الاختبـار طويـل قـد يكـون مركّبًـا مـن خمسـة أسـئلة كلّ سؤال يوضـع بخمـس جـولات، مـع انتظـار وتمهّـل، فبعـد سـاعتين تتعـب ذهنيًّـا وقـد لا تحسـن الاسـتمرار بنفـس الآليّـة.

مـن جـرّب هـذه الطّريقـة أقـلّ مـا حصّلـه أن يحـيرّ الطّبيـب النّفسـيّ، ويجعلـه لا يفهـم مـا يحصـل، ويوقـف الاختبـار بارتبـاك، ويعيـده في يـوم آخـر، ثـمّ يقولـون للمحقّقـين إنّـه صـادق لكـن هنـاك أمـر آخـر صغـير يخفيـه، كلّمـا تذكّـره حصـل ارتفـاع في الجهـاز.

هـذه خلاصـة معرفـتي بالجهـاز، هنـاك كتابـات كثـيرة عنـه يمكنكـم مراجعتهـا، ولعـلّ هنـاك وسـائل أخـرى لخداعـه لم أطّلـع عليهـا، فأنـا أكتـب الآن باسترسـال مـن غـير مراجعـة، وخلاصـة الأمـر أنّ اللّعـب بنتائجهـا ممكـن غـير مسـتحيل، بـل المسـتحيل أن يعـرف أحـدٌ مـا يـدور في ذهنـك.

(٣٩) محاولة إثارة الخصومات

من الواجب أيضًا الحذر من محاولتهم إثارة الخصومات، وتشويه السّمعة، قد ينقلون إليك كلامًا عنك من زملائك أو معارفك، ثمّ يعينك الشّيطان بوساوسه وتخرّصاتك على اعتبارها واحتمال تصحيحها، حتّى تحمل في قلبك عليهم.

لا تنسّ أنّهم دجاجلة وكذبة رأي العين، قالوا لأحد الأشخاص لقد أصدرت الجماعة الفلانيّة بيانًا تتبرّأ فيه منك، وفي نفس الوقت استدعوا أمير تلك الجماعة وقالوا له أنّ الأسير الفلانيّ يطعن فيكم، ويتحدّث عنكم، في الواقع هناك خلافات بين الشّاب والجماعة، ولكن لم يحصل منه حديثٌ عندهم ضدّ الجماعة، ولم تُصدر الجماعة بيانًا، وبذلك يحاولون استفزازك للحديث عنهم، ثمّ أخذ كلامك لاستفزاز الطّرف الآخر وتطعن فيهم.

تذكّر أنّك مهما اختلفت مع إخوانك المسلمين يبقى حذاؤهم أشرف من ألف كافر، فلا تبثّ خلافاتك في تلك الغرف، إنّما لكلّ مقام مقال.

(٤٠) لا تطعن بأصحابك فيُستغلّ ضدّك

الكثير من الأخوة إن دخل غرف التّحقيق يحاول أن يُثبت للمُحقّق أنّه مسالم، ويتمسكن ويطعن بكلّ المشايخ والأصحاب من حوله، ويُشعره أنّه إنسانٌ دنيويّ، والغاية من ذلك خداع المُحقّق لا أكثر، لكن اعلم أنّ هذا المنهج قد يُستغلّ ضدّك بأسلوبين:

الأوّل: بنقل كلامك أو مواجهتك مع صديقك، ومثل هذا حصل كثيرًا.

الثّاني: أنّه قد يُبنى ملفّ على صديقك بناء على أقوالك وأقوال آخرين اتّخذوا نفس طريقتك، وتخيّل موقفك بعدها لو استدعيت لتشهد عليه بالمحكمة، بإعادة قول ما قلته في غرف التّحقيق.

لذا كن حذرًا ولا أرى هذا المنهج حسنًا، بل احترز منه خير لك وأفضل.

(٤١) الخاتمة

أحسب أنّ في هذا القدر الكفاية، ربّما فاتني بعض الأمور، ولكن أكثر ما عرضته أشكال متنوّعة، والمضامين الّتي يجب التّركيز عليها محدودة:

لا تعترف لأحد، ولا تصارح أحدًا بشيء، واقطع كلّ علاقاتك مع الخارج، ولا تثق بأحدٍ، بدءًا من أقرب الأصدقاء، ومحاميك، وانتهاءً بالمحقّقين والعملاء.

في السّجن تكون ذاكرتك قويّة، بل هائلة، ستتذكّر كلّ عبارة قرأتها هنا، ستتذكّر أبسط التّفاصيل في أيّامك السّابقة، لانقطاعك عن أمور الدّنيا ومشاغلها وكثرة التّفكير، دائمًا سيقف إليك خاطر أنّ هذه الحالة استثناء، وأنّ هذا ليس عصفور، هذه المرّة يبدو أنّ المُحقّق صادق، لا بُدّ أن أسأل المحامي وأطمئنّ على كذا، فهذه النّقطة أكثر ما أردت علاجه بهذه الورقات.

لذا كلّما خرج لك خاطر من هذا النّوع، أرجو أن تستحضرني أمامك، وتتخيّلني أرطمك على رأسك، وأوبّخك وتجدني أقوم بقلع هذه الوساوس من رأسك قلعًا، هذه العبارة ستتذكّرها كثيرًا ولعلّها أنفع ما في هذه السّلسلة كأثر نفسيّ وستفيد جدًّا إن شاء الله.

كن كيّسًا فطنًا لا تدع أحدًا يؤثّر عليك، ويمرّر إليك معلومات كاذبة، عليك بحفظ القرآن فإنّه من أعظم المثبّتات في المعتقل، وأكثر من التّهليل والتّسبيح والذّكر، فكلّ ما ذُكر سابقًا من الأخذ بالأسباب، فلا يعني الأخذ بالأسباب أن تتّكل عليها، بل خذ بها وتوكّل على ربّ الأسباب فبيده مقادير كلّ شيء.

واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ المؤمن كيفما وقع وتقلّب وحصل معه فهو في خيرٍ وأنعم الله يتنعّم بالسّرّاء والضّرّاء، أسأل الله لنا ولكم الحفظ والعفو والعافية، وأن يفرّج عن المسلمين كُربهم ومصائبهم، ويعلي رايتهم ويمدّهم بقوّته وسلطانه وجبروته، ليعلو ويظهروا في الأرض، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

هذا والحمد لله ربّ العالمين